بسم الله الرحمن الرحيم

من الدستور الإلهي

أعوذ بالله من الشيطان الرحيم

{وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ 104 وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ}.

[آل عمران: 104، 105]

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

اللهم ربنا لك الحمد، حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، ملء السموات، وملء الأرض، وملء ما شئت من شيء بعد، وصلاة وسلاما على صفوتك من خلقك، وخاتم أنبيائك ورسلك، سيدنا وإمامنا محمد، وعلى آله وصحبه، ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين.

أما بعد ...

فقد كان من قدر الله تعالى وفضله علي، أن هيأ لي الاستماع إلى الإمام الشهيد حسن البنا، وأنا طالب في السنة الأولى من المرحلة الابتدائية بمعهد طنطا الأزهري الديني، وذلك عام 1941م، وقد تجاوزت الرابعة عشرة من عمري.

كان حسن البنا يتحدث في مناسبة الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم، ولأول مرة في حياتي أسمع - منذ عقلت ووعيت - كلاما جديدا عن الهجرة الشريفة وما يستخلص منها من دروس وعبر، فطالما سمعت في أوائل المحرم من كل سنة من الوعاظ والخطباء في قريتنا، قصة الهجرة وأحداثها، خصوصا ما يتعلق بقصة «الغار»، ونسخ العنكبوت، وبيض الحمام ... إلخ. ولكن حسن البنا تحدث عن الهجرة باعتبارها حدا فاصلا بين عهدين: عهد تربية الفرد في مكة، وعهد إقامة الدولة في المدينة، وخصائص كل منهما، وكيف نستفيد نحن في هذه الذكرى، لنعمل على تكوين

الفرد المسلم، وصولا إلى بناء المجتمع والدولة.

تركت كلمات حسن البنا أثرها في عقلي وقلبي، وظللت أترقب وصوله إلى مدينة طنطا - عاصمة مديرية الغربية - في المناسبات المختلفة، لأهرول إليه، وأستمع إلى حديثه بشغف ولهفة، وإن كنت لم أدر بعد ما السبيل إلى الانخراط في جماعته، والانضمام إلى ركب دعوته؟

حتى كنت في السنة الرابعة الابتدائية، ودعيت من قبل قسم الطلاب في شعبة الإخوان بطنطا للمشاركة في النشاط الثقافي بإلقاء قصيدة شعرية في موضوع إسلامي أختاره.

واستجبت للدعوة مستبشرا، واعتليت المنصة لأول مرة في مركز الإخوان لألقي قصيدة أنشأتها بهذه المناسبة، لم أعد أذكر إلا مطلعها:

قلبي يحس برحمة تتدفق   ويرى الملائك حولنا قد أحدقوا

واعتبرت من ذلك اليوم واحدا من طلاب الإخوان المسلمين، ثم بعد ذلك أحد أعضاء قسم نشر الدعوة، الذي يشرف عليه الداعية الكبير أستاذنا البهي الخولي رحمه الله .

كان الإمام حسن البنا في القاهرة، وكنت في طنطا حيث أدرس في معهدها الديني قريبا من قريتي ... ولهذا كانت فرصة لقائي بالإمام البنا محدودة، وهي مرهونة بزيارته لطنطا أو للمدن القريبة منها، أو المرتبطة بها مثل: المحلة، أو كفر الزيات، أو دسوق.

وكم كنت معلق القلب بذلك اليوم الذي أفرغ فيه من دراستي الثانوية بطنطا، وألتحق بجامعة الأزهر بالقاهرة، حيث تتاح لي فرصة اللقاء

والملازمة والتتلمذ المباشر للإمام البنا، ولكن القدر كان يخبئ شيئا ادخره للرجل الكبير، وهو الشهادة في سبيل الله.

وما كان أفجعه من نبأ، نزل علينا كوقع الصاعقة، حين قرأناه في الصحف، يوم ترحيلنا من سجن قسم أول طنطا إلى معتقل «هايكستب»، ومنه إلى معتقل «الطور» في 1949/2/13م نبأ اغتيال الشيخ البنا، هدية للملك فاروق في يوم عيد ميلاده!

وهكذا قدرت شيئا، وقدر الله شيئا آخر، وحرمت التتلمذ المباشر على إمام الدعوة، ولم يبق أمامي إلا التتلمذ على أفكاره المبثوثة في رسائله ومقالاته، وفي تلامذته وأصحابه الذين عايشوه وتلقوا عنه العلم والعمل، والفكر والسلوك.

والحق أني لم أعجب بشخصية حية لقيتها وتأثرت بها، كما أعجبت بشخصية الشهيد حسن البنا، الذي آتاه الله من المواهب والملكات ما تفرق في عدد من الشخصيات، فقد جمع بين العلم والتربية، ومزج بين الفكر والحركة، وربط بين الدين والسياسة، ووصل ما بين الروحانية والجهاد، وكان النموذج الحي للرجل القرآني، والمعلم الرباني، والمجاهد الإسلامي، والداعية العصري، والمنظم الحركي، والمناضل السياسي، والمصلح الاجتماعي.

ولم يكن هذا شأني وحدي، فإن كل من عرف حسن البنا أعجب به إعجابا كبيرا، وكلما زادت معرفته به بالاختلاط والمعاشرة ازداد إعجابا به، وحبا له، كما لمست ذلك من كثيرين من شيوخ الدعوة وشبابها: البهي الخولي، ومحمد الغزالي، وسيد سابق، وعبد العزيز كامل، وفريد عبد الخالق، وعمر

التلمساني، ومصطفى مشهور، وعباس السيسي ... وغيرهم.

ومن لم يعرف حسن البنا عن طريق المعايشة والمخالطة عرفه عن طريق أثره الفكري والتربوي والتنظيمي، وهذا ما جعل الشهيد سيد قطب يصفه بـ«عبقرية البناء» حين شاهد هذه المجموعة الهائلة من الترتيبات والأبنية والنظم التربوية والحركية التي ابتكرها هذا الرجل «الملهم الموهوب» كما سماه المرشد الثالث الأستاذ عمر التلمساني رحمه الله .

والذي يهمنا هنا أني وعيت ما كتبه الشهيد البنا، وقرأت تقريبا كل ما عثرت عليه من تراثه، وإن كان مما يؤسف له أن هذا التراث إلى اليوم لم ينشر في صورة «مجموعة أعمال كاملة» كما حدث ذلك لأمثال جمال الدين الأفغاني، والشيخ محمد عبده، والشيخ رفاعة الطهطاوي ... وغيرهم(1).

وكان مما شدني وبهرني من تراث الإمام البنا: رسالته الفريدة المركزة التي أرسى بها دعائم العمل الحركي الجماعي ... وهي: «رسالة التعاليم» التي وجهها إلى «الإخوان العاملين» من الإخوان المسلمين، وقال في مقدمتها:

«أما بعد ... فهذه رسالتي إلى الإخوان المجاهدين من الإخوان المسلمين، الذين آمنوا بسمو دعوتهم، وقدسية فكرتهم، وعزموا صادقين على أن يعيشوا

---

(1) منذ نحو سبعة عشر عاما لقيت الأخ الأستاذ أحمد سيف الإسلام حسن البنا في لندن، وحدثته عن ضرورة جمع تراث الإمام الشهيد، ونشره كله: رسائل ومقالات وبيانات وأحاديث ثلاثاء ... إلخ، فبشرني بأنه يوشك أن يفرغ من هذا ويعده للنشر، ومما يؤسف له أن تمضي هذه المدة، وينقضي أكثر من أربعين عاما على استشهاد الإمام البنا ولم يستطع ورثته ولا جماعته أن ينهضوا بهذا الواجب!! إن تراث البنا ملك لأجيال الأمة جميعا، فيجب نشره وتعميم النفع به.

بها، أو يموتوا في سبيلها، إلى هؤلاء الإخوان فقط أوجه هذه الكلمات الموجزة، وهي ليست «دروسا تحفظ» لكنها «تعليمات تنفذ».

أما غير هؤلاء، فلهم دروس ومحاضرات، وكتب ومقالات، ومظاهر وإداريات، ولكل وجهة هو موليها، فاستبقوا الخيرات، وكلا وعد الله الحسنى».

اشتملت الرسالة على «أركان عشرة» للعمل الإسلامي المنشود، أطلق عليها عنوان «أركان البيعة»، وذلك لأن كل من يريد أن ينتقل من «عضو مشترك» إلى «عضو عامل» أو «أخ عامل» لا بد له أن يبايع قائد الدعوة أو من ينوب عنه على تحمل تبعات هذه المرحلة وأعبائها، وما توجبه على صاحبها من سمع وطاعة وكتمان وجهاد وتضحية وعمل متواصل وثبات إلى النهاية.

وقد نناقش معنى هذه البيعة ومضمونها في مقام آخر، ولكن الذي يعنينا الآن من أركان البيعة العشرة هو: الركن الأول «الفهم».

خلاصة مركزة لقراءات مطولة:

ومن قرأ هذه الأصول وتدبرها حق التدبر، وكان له اطلاع على مصادر العلم والمعرفة الإسلامية أيقن أنها تمثل خلاصة مركزة لقراءات طويلة، ودراسات عميقة في علوم القرآن والسنة، والأصولين: أصول الفقه، وأصول الدين، والفقه، والتصوف، مع عقلية هاضمة مستوعبة، قادرة على التأصيل والترجيح.

ولا غرو فقد كان التكوين العلمي لحسن البنا تكوينا متينا راسخا، وكان

أول رفقائه في مراحل دراسته المختلفة وفي دار العلوم، وكان قارئا واعيا للقديم والجديد، عالما بمذاهب العلماء السابقين من السلف والخلف، خبيرا باتجاهات المحدثين والمعاصرين، وخصوصا «مدرسة المنار» التجديدية، وكان البنا رحمه الله أقرب إلى فكر السيد رشيد رضا، في انضباطه من فكر الإمام محمد عبده في انطلاقه.

ومن أراد أن يعرف مقدار «الأصالة العلمية» لحسن البنا فليقرأ الأعداد الخمسة التي أصدرها من مجلة «الشهاب» التي رأس تحريرها بنفسه، والتي أراد بها أن يسد ما لمسه من قصور وتقصير لدى أتباعه وجنوده في المجال العلمي والفكري، وقد انشغل هو بتأليف الرجال عن تأليف الكتب.

كان حسن البنا يحرر جملة من الأبواب بقلمه في المجلة، فهو يكتب في «العقيدة» بدءا بعقيدة الألوهية «الله» ... ويكتب في «التفسير» بدءا بسورة الفاتحة ... ويكتب في «علوم الحديث» بدءا بالرواية والإسناد ... ويكتب في أصول الإسلام كنظام اجتماعي، وقد بدأ بالكتابة عن «السلام في الإسلام» ... ويكتب في «التاريخ»، وهو في جميعها أصيل ومجيد.

ولهذا عني العلماء والدعاة من أبناء الحركة الإسلامية برسالة التعاليم، وبركن الفهم، أو الأصول العشرين، مجتهدين في شرحها وتفسيرها.

وأول من حاول ذلك هو العالم الفاضل والواعظ المربي، الشيخ عبد المنعم أحمد تعيلب، وقد شرح الرسالة كلها شرحا موجزا سريعا، وقد قام جدال في ذلك الوقت «أوائل الخمسينات» بين قطبين من أقطاب الدعوة حول هذا الشرح، وهما الأستاذان: البهي الخولي، وعبد العزيز كامل، فقد كان الأول

يرى ألا يعطى الحق لكل واحد في شرح تراث البنا والتعليق عليه، وإنما ينبغي أن يكون ذلك بتكليف من الجماعة، وإلا فسرها كل امرئ بما شاء، مع أن رسائل البنا تمثل المنهاج الرسمي للإخوان المسلمين، فلا يجوز أن يتهاون في أمرها داخل الجماعة، وكان رأي الثاني أن هذه الاتجاه يفرض ديكتاتورية فكرية على الجماعة وعلمائها، ويكبل حركة الفكر فيها، ويعطي لبعض أبنائها سلطة بابوية على بعض.

والواقع أن هذا الجدل قد لفت نظري إلى هذه الرسالة، وإلى الاهتمام بركن «الفهم» أو بـ«الأصول العشرين» بصورة خاصة، وتكونت عندي رغبة للتصدي لشرح هذه الأصول شرحا علميا موثقا مفصلا في ضوء القواعد والعلوم الإسلامية.

وعندما كنا في السجن الحربي في أيامنا الأخيرة سنة 1956م حين فكت عنا بعض القيود، وأتيح لبعضنا أن يجلس إلى بعض، بدأت الحديث مع بعض الإخوان حول هذه الأصول، وحثني الكثيرون أن أعمد إلى شرحها، إذا يسر الله لنا الخروج من الأسر، وهيأ الأسباب للكتابة.

وظل هذا التوجه قائما في النفس، ولا سيما بعد أن أعرت إلى قطر سنة 1961م، وبعد أن يئست من العودة القريبة إلى مصر منذ محنة 1965م، وبعد أن كتب إلي بعض الإخوة الذين عرفوا هذا التوجه عندي يستحثونني على الكتابة في الموضوع، ومنهم الأخ الصديق عبد الله العقيل مدير إدارة الشئون الإسلامية بالكويت عند ذاك.

وفي صيف سنة 1966م التقيت بمجموعة من الإخوة في الأردن، في

صورة مخيم بالمدرسة الإسلامية بمدينة «اربد» في لقاء مطول تحدثت معهم عن «الأصول العشرين» ودلالاتها النظرية والعملية، وكان هذا سببا في المزيد من التحريض لي على الوفاء بما وعدت به من شرح هذه الأصول.

وبالفعل كتبت فصولا متعددة في شرح بعض الأصول، ولكنها لم تكن مرتبة، وعندما عادت مجلة «الدعوة» القاهرية للظهور مرة أخرى بإشراف الأستاذ عمر التلمساني أوائل السبعينات، شرعت أنشر فيها بعض ما كنت أعددته من شرح، مبتدئا بالأصل الأول الذي يتحدث عن «شمول الإسلام» بوصفه نظاما كاملا للحياة ... وبعد جملة أعداد توقفت عن الاستمرار.

ومنذ سنوات ألح علي بعض الإخوة أن أنظم معهم جلسات علمية هادئة، أشرح فيها هذه الأصول أصلا أصلا، وأتلقى الأسئلة حولها، على أن يسجل هذا الشرح في أشرطة كاسيت، وأن توزع في نطاق محدود، إلى أن يوفق الله للشرح المكتوب والمنشود، وتم هذا الشرح مسجلا في خمسة عشر شريطا، عني بعض الإخوان بنشرها في شتى القارات، وعلى نطاق أوسع مما كنت أظن، ونفع الله بها كثيرين في المشرق والمغرب(2). وطلب إلي بعض الناشرين أن يفرغوها وينشروها على ما هي عليه، ولكني رفضت ذلك، حتى لا يثبطني ذلك عن إكمال الشرح التحريري المطلوب.

وقد ظهرت في السنوات الأخيرة عدة شروح لهذه الأصول، أعتقد أن أهمها هو شرح شيخنا الشيخ محمد الغزالي، الذي سماه «دستور الوحدة

---

(2) رأيت بعض الإخوة الذين شرحوا «الأصول العشرين» أخيرا، قد استفادوا من شرحي المسجل واقتبسوا منه، في العناوين والمضامين والأمثلة والأدلة، وأشار إلى ذلك بعضهم مشكورا في بعض المواضع، ولم يشر آخرون - سامحهم الله.

الثقافية بين المسلمين»، وهو ما جعلني أتكاسل بعض الوقت عن إتمام كتابي، ثم شرح الله صدري لاستكمال ما بدأت به، إذ لا مانع من تعدد الشروح، ولكل شيخ طريقته كما يقولون، وكم رأينا لعلمائنا المتقدمين من شروح عدة لكتاب واحد، وقد يوجد في المفضول ما لا يوجد في الفاضل.

وشرحي هذا يهتم بالتأصيل والتفصيل والتدليل، ويركز على شرح الأفكار، أكثر من التركيز على شرح الألفاظ، وبخاصة ما كان مجهولا، أو غامضا لدى بعض الناس، أو ينازع فيه منازعون، أو يشكك فيه مشككون، أو يرتاب فيه مترددون، مجتهدا أن أرد الأمور إلى جذورها من علومنا الإسلامية الأصيلة، محتكما إلى النصوص المحكمة، والقواعد الضابطة للفهم والاستدلال، ولا سيما مثل علم أصول الفقه، واصول التفسير، وأصول الحديث، وما تفرق من الأحكام والمبادئ الهادية في مختلف المعارف والعلوم، ومستأنسا بأقوال من الراسخين من العلماء في شتى التخصصات، ومن شتى المذاهب غير متعصب لمدرسة معينة، ولا لمذهب معين، مستمدا العون والتوفيق من الله - جل جلاله - فقديما قال الشاعر:

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجني عليه اجتهاده!

هذا ... ومن المقترحات التي لقيت قبولا عندي ما عرضه بعض الإخوة من نشر ما تتم كتابته من شرح هذه الأصول في صورة رسائل متتابعة، كل رسالة تتضمن أصلا واحدا أو أصلين، ثم ترتب بعد ذلك في كتاب من جزأين أو عدة أجزاء.

وها أنا أتوكل على الله عز وجل، وأصدر الرسالة الأولى عن الأصل الأول داعيا الله تعالى أن يسدد خطانا، ويرزقنا التوفيق لإخراج سائر

الأصول، وأن يغفر لنا ما يزل به الفكر أو القلم، وأن يتم علينا النعمة بتحصيل أجري من اجتهد فأصاب، ولا يحرمنا الأجر إن اجتهدنا فأخطأنا: {رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ} [البقرة: 286].

الدوحة في ذي القعدة 1411هـ «مايو 1991م» الفقير إلى عفو مولاه

الدكتور يوسف القرضاوي

* * *

الأصول العشرون

يقول الإمام البنا:

أيها الإخوان الصادقون.

أركان بيعتنا عشرة فاحفظوها:

«الفهم، والإخلاص، والعمل، والجهاد، والتضحية، والطاعة، والثبات، والتجرد، والأخوة، والثقة».

أيها الأخ الصادق:

إنما أريد بالفهم: أن توقن بأن فكرتنا «إسلامية صميمة»، وأن تفهم الإسلام كما نفهمه، في حدود هذه الأصول العشرين الموجزة كل الإيجاز:

1 - الإسلام نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعا، فهو دولة ووطن، أو حكومة وأمة، وهو خلق وقوة، أو رحمة وعدالة، وهو ثقافة وقانون، أو علم وقضاء، وهو مادة وثروة، أو كسب وغنى، وهو جهاد ودعوة، أو جيش وفكرة، كما هو عقيدة صادقة وعبادة صحيحة، سواء بسواء.

2 - والقرآن الكريم والسنة المطهرة مرجع كل مسلم في تعرف أحكام الإسلام، ويفهم القرآن طبقا لقواعد اللغة العربية من غير تكلف ولا تعسف، ويرجع في فهم السنة المطهرة إلى رجال الحديث الثقات.

3 - وللإيمان الصادق والعبادة الصحيحة والمجاهدة نور وحلاوة يقذفها الله في قلب من يشاء من عباده، ولكن الإلهام والخواطر والكشف والرؤى

ليست من أدلة الأحكام الشرعية، ولا تعتبر إلا بشرط عدم اصطدامها بأحكام الدين ونصوصه.

4 - والتمائم والرقى والودع والرمل والمعرفة والكهانة وادعاء معرفة الغيب، وكل ما كان من هذا الباب منكر تجب محاربته «إلا ما كان آية من قرآن أو رقية مأثورة».

5 - ورأي الإمام ونائبه فيما لا نص فيه، وفيما يحتمل وجوها عدة، وفي المصالح المرسلة، معمول به ما لم يصطدم بقاعدة شرعية، وقد يتغير بحسب الظروف والعرف والعادات، والأصل في العبادات التعبد دون الالتفات إلى المعاني، وفي العاديات الالتفات إلى الأسرار والحكم والمقاصد.

6 - وكل أحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا المعصوم صلى الله عليه وسلم، وكل ما جاء عن السلف - رضوان الله عليهم - موافقا للكتاب والسنة قبلناه، وإلا فكتاب الله وسنة رسوله أولى بالاتباع، ولكنا لا نعرض للأشخاص - فيما اختلف فيه - بطعن أو تجريح، ونكلهم إلى نياتهم، وقد أفضوا إلى ما قدموا.

7 - ولكل مسلم لم يبلغ درجة النظر في أدلة الأحكام الفرعية أن يتبع إماما من أئمة الدين، ويحسن به مع هذا الاتباع أن يجتهد ما استطاع في تعرف أدلته، وأن يتقبل كل إرشاد مصحوب بالدليل متى صح عنده صلاح من أرشده وكفايته، وأن يستكمل نقصه العلمي إن كان من أهل العلم حتى يبلغ درجة النظر.

8 - والخلاف الفقهي في الفروع لا يكون سببا للتفرق في الدين، ولا يؤدي إلى خصومة ولا بغضاء، ولكل مجتهد أجره، ولا مانع من التحقيق العلمي النزيه في مسائل الخلاف في ظل الحب في الله، والتعاون على الوصول إلى الحقيقة، من غير أن يجر ذلك إلى المراء المذموم والتعصب.

9 - وكل مسألة لا ينبني عليها عمل، فالخوض فيها من التكلف الذي نهينا عنه شرعا، ومن ذلك: كثرة التفريعات للأحكام التي لم تقع، والخوض في معاني الآيات القرآنية الكريمة التي لم يصل إليها العلم بعد، والكلام في المفاضلة بين الأصحاب - رضوان الله عليهم - وما شجر بينهم من خلاف، ولكل منهم فضل صحبته وجزاء نيته، وفي التأول مندوحة.

10 - معرفة الله تتت وتوحيده وتنزيهه أسمى عقائد الإسلام، وآيات الصفات وأحاديثها الصحيحة وما يليق بذلك من التشابه، نؤمن بها كما جاءت من غير تأويل ولا تعطيل، ولا نتعرض لما جاء فيها من خلاف بين العلماء؛ ويسعنا ما وسع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه: {**وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا**} [آل عمران: 7].

11 - وكل بدعة في دين الله لا أصل لها - استحسنها الناس بأهوائهم، سواء بالزيادة فيه أو بالنقص منه - ضلالة تجب محاربتها والقضاء عليها بأفضل الوسائل التي لا تؤدي إلى ما هو شر منها.

12 - والبدعة الإضافية والتركية والالتزام في العبادات المطلقة خلاف فقهي، لكل فيه رأيه، ولا بأس بتمحيص الحقيقة بالدليل والبرهان.

13 - ومحبة الصالحين واحترامهم والثناء عليهم بما عرف من طيب أعمالهم قربة إلى الله تنت، والأولياء هم المذكورون في قوله تعالى: {**ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ**} [يونس: 63]، والكرامة ثابتة لهم بشرائطها الشرعية مع اعتقاد أنهم - رضوان الله عليهم - لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا في حياتهم أو بعد مماتهم فضلا عن أن يهبوا شيئا من ذلك لغيرهم.

14 - وزيارة القبور أيا كانت سنة مشروعة بالكيفية المأثورة، ولكن الاستعانة بالمقبورين أيا كانوا ونداءهم لذلك وطلب قضاء الحاجات منهم عن قرب أو بعد والنذر لهم وتشييد القبور وسترها وإضاءتها والتمسح بها والحلف بغير الله وما يلحق بذلك من المبتدعات كبائر تجب محاربتها، ولا نتأول لهذه الأعمال سدا للذريعة.

15 - والدعاء إذا قرن بالتوسل إلى الله بأحد من خلقه خلاف فرعي في كيفية الدعاء وليس من مسائل العقيدة.

16 - والعرف الخاطئ لا يغير حقائق الألفاظ الشرعية، بل يجب التأكد من حدود المعاني المقصود بها، والوقوف عندها، كما يجب الاحتراز من الخداع اللفظي في كل نواحي الدنيا والدين، فالعبرة بالمسميات لا بالأسماء.

17 - والعقيدة أساس العمل، وعمل القلب أهم من عمل الجارحة، وتحصيل الكمال في كليهما مطلوب شرعا، وإن اختلفت مرتبتا الطلب.

18 - والإسلام يحرر العقل، ويحث على النظر في الكون، ويرفع قدر العلم والعلماء، ويرحب بالصالح النافع من كل شيء، و«**الحكمة ضالة**

المؤمن، أنى وجدها فهو أحق الناس بها».

19 - وقد يتناول كل من النظر الشرعي والنظر العقلي ما لا يدخل في دائرة الآخر، ولكنهما لن يختلفا في القطعي، فلن تصطدم حقيقة علمية صحيحة بقاعدة شرعية ثابتة، ويؤول الظني منهما ليتفق مع القطعي، فإن كانا ظنيين فالنظر الشرعي أولى بالاتباع حتى يثبت العقلي أو ينهار.

20 - لا نكفر مسلما أقر بالشهادتين وعمل بمقتضاهما وأدى الفرائض - برأي أو معصية - إلا إن أقر بكلمة الكفر، أو أنكر معلوما من الدين بالضرورة، أو كذب صريح القرآن، أو فسره على وجه لا تحتمله أساليب اللغة العربية بحال، أو عمل عملا لا يحتمل تأويلا غير الكفر.

وإذا علم الأخ المسلم «دينه» في هذه الاصول فقد عرف معنى هتافه دائما: «القرآن دستورنا، والرسول قدوتنا». اهـ.

حسن البنا

* * *

لماذا قدم الإمام البنا ركن «الفهم»؟

قبل أن أبدأ في شرح الأصول أجيب عن بعض الأسئلة التي تدور بخلد بعض الناس.

فقد يعن للقارئ هنا سؤال، وهو: لماذا جعل الإمام البنا الفهم هو الركن الأول، وقدمه على غيره من الأركان الأخرى، كالإخلاص والعمل والتضحية والجهاد والثبات؟

والواقع أن البنا رضي الله عنه كان موفقا كل التوفيق في هذا التقديم، ولا غرو، فقد كان الرجل بصيرا بـ«فقه الأولويات»، وتقديم ما يستحق التقديم.

فما لا ريب فيه أن الفكرة تسبق الحركة، وأن التصور الصحيح مقدمة ضرورية للتوجه الصحيح، والعمل المستقيم، ولهذا كان العلم عندنا ـ نحن المسلمين ـ يسبق العمل، بل العلم عندنا دليل الإيمان، وطريق الاعتقاد السليم.

والإمام الغزالي وغيره من الصوفية الكبار يرون أن مقامات الدين والتخلق بأخلاق النبيين والصديقين لا يتم إلا بمعجون مركب من ثلاثة أشياء: علم وحال وعمل، فالعلم يورث الحال، والحال يدفع إلى العمل.

وهو يشبه ما يقوله علماء النفس عن الإدراك والانفعال والنزوع، وهي ثلاثة يفضي بعضها إلى بعض، بمعنى أن الإنسان يعرف ويدرك، فيتأثر وينفعل رغبا أو رهبا، فينزع ويريد إيجابا أو سلبا.

وهذا الترتيب واضح في القرآن الكريم.

يقول الله تعالى: {**وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ**

فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ [الحج: 54].

والعطف بالفاء يفيد الترتيب والتعقيب، أي: أن العلم يترتب عليه الإيمان، والإيمان يترتب عليه الإخبات، فهم إذا علموا آمنوا، وإذا آمنوا أخبتوا.

ويقول تعالى: {**فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ**} [محمد: 19].

فقدم الأمر بالعلم {**فَٱعْلَمْ**} على الأمر بالعمل وهو الاستغفار.

قال الإمام البخاري في كتاب العلم: «باب العلم قبل القول والعمل»؛ لقوله تعالى: {**فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ** ...} الآية، فبدأ بالعلم، قال الشراح: أراد أن العلم شرط في صحة القول والعمل، فلا يعتبران إلا به، فهو متقدم عليهما؛ لأنه مصحح للنية المصححة للعمل، فنبه المصنف على ذلك، حتى لا يسبق إلى الذهن من قولهم: «إن العلم لا ينفع إلا بالعمل» تهوين أمر العلم والتساهل في طلبه(3).

والخطاب في الآية وإن كان للنبي صلى الله عليه وسلم فهو متناول لأمته بلا نزاع.

وأخطر ما يصيب الإنسان أن تلتبس عليه الأمور، فيرى الباطل حقا، والحق باطلا، والمعروف منكرا، والمنكر معروفا، والسنة بدعة، والبدعة سنة، وأن يزين له سوء عمله فيراه حسنا، وقد قال تعالى لرسوله: {**قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا 103 ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ**

---

(3) «صحيح البخاري» مع «فتح الباري» ط. دار الفكر، تصويرًا عن ط. السلفية بإشراف الشيخ عبد العزيز بن باز، وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي.

أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا} [الكهف: 103، 104].

وقال عز وجل: {**أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ** ...} [فاطر: 8].

ولهذا كان من الأدعية المأثورة: «اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه».

وجاء في بعض الأحاديث التحذير من زمن يصبح فيه المعروف منكرا، والمنكر معروفا، وهذا كله من قلة العلم.

ولهذا لم يخل كتاب من كتب الحديث المصنفة على الأبواب من إفراد كتاب للعلم، كما في الصحيحين والسنن، وغيرها «كالمستدرك ومجمع الزوائد».

وكان أول كتاب من كتب «إحياء علوم الدين» الأربعين هو كتاب العلم.

وأول عقبة يجب أن يقطعها السالك في طريقه إلى الله هي «عقبة العلم»، كما في كتاب «منهاج العابدين» للغزالي أيضا.

ولقد حذر الربانيون من أئمة السلف رضي الله عنهت من الإقبال على التعبد، قبل التزود من العلم، فقال الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز: «العامل على غير علم يفسد أكثر مما يصلح»(4).

وقال الإمام الحسن البصري: «العامل على غير علم كالسائر على غير طريق، والعامل على غير علم ما يفسد أكثر مما يصلح، فاطلبوا العلم طلبا لا

---

(4) ذكره ابن الجوزي في «سيرة عمر بن عبد العزيز ومناقبه» (ص250).

يضر بالعبادة، واطلبوا العبادة طلبا لا يضر بالعلم، فإن قوما طلبوا العبادة وتركوا العلم حتى خرجوا بأسيافهم على أمة محمد صلى الله عليه وسلم، ولو طلبوا العلم لم يدلهم على ما فعلوا»[5].

يعني بهؤلاء: الخوارج الذين استحلوا دماء الأمة وأموالها، وكفروا الناس بالجملة، برغم أنهم كانوا صواما قواما قراء للقرآن، كما وصفهم الحديث: «**يحقر أحدكم صلاته إلى صلاتهم، وصيامه إلى صيامهم، وقراءته إلى قراءتهم**»، ولكن آفتهم أنهم: «**يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم**»، أي: أنهم لم يتعمقوا في فهمه فانتهى بهم الأمر إلى أنهم «**يقتلون أهل الإسلام، ويدعون أهل الأوثان!**»[6].

ومن هنا كان لا بد من العلم قبل العمل، كما قال معاذ رضي الله عنه: «العلم إمام العمل، والعمل تابعه»[7].

ولذا قال صلى الله عليه وسلم وقد ذكر له رجلان: أحدهما عابد، والآخر عالم: «**فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم**»[8].

إن العلم الشرعي فريضة وضرورة للإنسان المسلم، حتى قال بعض السلف: إن حاجة المرء إلى العلم أشد من حاجته إلى الطعام والشراب، وهذا صحيح؛ لأنه إذا فقد الطعام والشراب هلك بدنه، وإذا فقد العلم هلك روحه،

---

(5) ذكره ابن القيم في «مفتاح دار السعادة» (83/1).

(6) انظر في ذلك حديث أبي سعيد الخدري المتفق عليه «اللؤلؤ والمرجان» حديث (639)، وما بعده.

(7) رواه أبو نعيم في «الحلية»، وابن عبد البر في «العلم»، وغيرهما، ورفعه بعضهم، والصواب وقفه.

(8) رواه الترمذي عن أبي أمامة، وقال: «حسن صحيح غريب» (2686) ط. حمص.

وأين من خسر الحياة الفانية ممن خسر الحياة الأبدية الباقية؟!

وضرورة الإنسان المسلم للعلم تتمثل فيما يلي:

1 - فهو الوسيلة الفذة لتمييز الحق من الباطل في العقائد، والصواب من الخطأ في الأفكار، وذلك بما يضعه من أصول وضوابط، لاستقامة الفهم، وصحة الاستدلال.

2 - وهو الوسيلة الفذة لتمييز المشروع من غير المشروع في الأعمال، أي: تمييز الحلال من الحرام في الأشياء والتصرفات، والمسنون من المبتدع في القربات والعبادات، والحسن من القبيح في الأخلاق والسلوك، وهو الذي يضع القواعد والأطر الضابطة لذلك كله.

3 - وهو الوسيلة الفذة لإعطاء الأعمال والتكاليف مراتبها الشرعية الصحيحة، ففي المأمورات يقول: هذا مستحب، أو واجب أو فرض، وهو فرض عين، أو فرض كفاية، وهو فرض عادي أو فرض مؤكد، مثل: أركان الإسلام ... وفي المنهيات يقول: هو مكروه، أو مشتبه فيه، أو حرام، وفي الحرام: هو صغيرة أو كبيرة، أو من أكبر الكبائر.

4 - ثم هو الوسيلة الفذة للحكم العادل على الأفراد والجماعات، وتقويم المواقف والأحداث تقويما سليما، بعيدا عن الشطط والهوى، وعن الإفراط والتفريط.

لماذا عبر الأستاذ بـ«الفهم» بدل «العلم»؟

وإنما عبر الأستاذ البنا عن «العلم» بـ«الفهم» لأنه المقصود من العلم، فليس العلم بكثرة الرواية بقدر ما هو عمق الدراية، ولهذا علق القرآن والسنة

الخير «بالتفقه في الدين» لا بمجرد «تعلم الدين».

يقول تعالى: {**فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ**} [التوبة: 122].

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «**من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين**»(9)، والفقه أخص من العلم، فهو يعني الفهم، بل الفهم الدقيق، الذي ينفذ إلى اللباب، ولا يكتفي بالقشور، وهو الذي ينير العقل، ويحيي القلب(10).

صحة الفهم من أعظم النعم:

يقول العلامة ابن القيم في شرح ما جاء في كتاب «عمر في القضاء» عند قوله: الفهم الفهم فيما أدلي إليك: «صحة الفهم وحسن القصد من أعظم نعم الله التي أنعم بها على عبده، بل ما أعطي عبد عطاء بعد الإسلام أفضل ولا أجل منهما، بل هما ساقا الإسلام، وقيامه عليهما، وبهما يأمن العبد طريق المغضوب عليهم الذين فسد قصدهم، وطريق الضالين الذين فسدت فهومهم، ويصير من المنعم عليهم الذين حسنت أفهامهم وقصودهم، وهم أهل الصراط المستقيم الذين أمرنا أن نسأل الله أن يهدينا صراطهم في كل صلاة، وصحة الفهم نور يقذفه الله في قلب العبد، يميز به بين الصحيح والفاسد، والحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد، ويمده حسن القصد، وتحري الحق، وتقوى الرب في السر والعلانية، ويقطع مادته اتباع الهوى، وإيثار

---

(9) متفق عليه من حديث معاوية.

(10) بين الإمام الغزالي في كتاب «العلم» من «الإحياء» أن كلمة «الفقه» من الكلمات التي بدلت معانيها عما تدل عليه في القرآن والسنة، وعما كان يفهمه منها الصحابة وسلف الأمة.

الدنيا، وطلب محمدة الخلق، وترك التقوى»[11].

وقد روى الإمام البخاري في «صحيحه» عن علي رضي الله عنه وكرم الله وجهه أنه سئل: هل خصكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء؟ قال: لا، إلا فهما يؤتاه عبد في كتاب الله، وما في هذه الصحيفة ... وأخرج صحيفة فيها بعض الأحكام ...

فالفهم عن الله ورسوله من أعظم النعم.

وشر ما يصاب به إنسان عدم الفهم عن الله ورسوله.

وشر منه أن يفهم عن الله ورسوله عكس ما يريدانه، فيحرف الكلم عن مواضعه، وهذه أسوأ الآفات.

لماذا نعنى بشرح هذه الأصول؟

وسؤال آخر قد يعرض لبعض الناس، بل قالوه.

قالوا: لم كل هذه العناية بهذه الأصول؟ وهل هي من كلام الله تتت، أو من كلام رسوله صلى الله عليه وسلم، حتى تتناولوه بالشروح والتفسير والتحليل؟

وبعبارة أخرى: هل تعتبرون إمامكم من أهل العصمة؟!

هل كان حسن البنا معصوما؟

لا والله، لم يدع ذلك يوما، ولم يدعه له أحد من أصحابه وتلاميذه، برغم فرط حبهم له، وإعجابهم به، وثنائهم عليه.

كيف وهو الذي جعل أحد أصوله العشرين: أن كل واحد يؤخذ من كلامه

---

(11) «إعلام الموقعين» لابن القيم (جـ1 ص87) بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد.

ويترك إلا النبي صلى الله عليه وسلم «الأصل السادس»؟

فلماذا إذن نعني بكلامه ونشرحه؟ حتى قال بعض الناس: هل هو قرآن أو حديث حتى تشرحوه؟!

وقائل هذا قليل البضاعة من العلم بالدين والتراث والحياة، فليس القرآن وحده هو الذي يفسر، ولا الحديث وحده هو الذي يشرح، فكم من كتب ألفها بشر غير معصومين، كتبت عليها الشروح المختصرة، والوسيطة، والمطولة، وكتبت على الشروح حواش، وعلى الحواشي تقريرات وإفادات.

وهذا في كل العلوم: الدينية، وغير الدينية ...

في علم العقيدة نجد: شرح «الفقه الأكبر» للإمام أبي حنيفة، وشرح «العقيدة الطحاوية»، وشرح «العقيدة الواسطية»، وشرح «السنوسية»، و«العقائد النسفية»، و«الجوهرة»، وغيرها ...

وكنا - ونحن طلبة في كلية أصول الدين بالأزهر - ندرس «العقائد النسفية»، وعليها شرح للعلامة سعد الدين التفتازاني، وعلى الشرح ثلاث حواش، لكل من: الخيالي، والعصام الاسفراييني، وعبد الحكيم السيالكوتي.

وفي الفقه: عرفت المتون الشهيرة في المذاهب، مثل: «الكنز»، و«الهداية» عند الحنفية، و«الرسالة» و«مختصر خليل» عند المالكية، و«المنهاج» و«أبي شجاع» عند الشافعية، و«الإقناع» و«المنتهى» و«الزاد» عند الحنابلة، وكلها حظيت بشروح متعددة، مختصرة ومطولة ومتوسطة.

وفي الأصول: عرفت «ورقات» إمام الحرمين، و«منهاج» البيضاوي،

و«مسلم الثبوت»، و«مختصر» ابن الحاجب، و«توضيح» صدر الشريعة، وغيرها.

وفي علوم الحديث: عرفت «مقدمة» ابن الصلاح وشروحها، و«تقريب» النواوي، و«نخبة» ابن حجر ... إلخ.

وفي التصوف: عرفت «حكم» ابن عطاء وشروحها، بل وضع العلامة الزبيدي شرحا على «إحياء علوم الدين» على سعته.

وفي اللغة وعلومها من النحو والصرف والبلاغة نجد متونا وشروحا وحواشي معروفة للدارسين، حتى إن العلامة المرتضى الزبيدي شرح «القاموس» شرحه الضخم المعروف «تاج العروس».

فلا غرابة - إذن - في شرح هذه الأصول التي وضعها حسن البنا؛ لتكون أساسا لوحدة الفهم عند العاملين للإسلام، وحرص على أن تكون موجزة كل الإيجاز، مركزة كل التركيز، بحيث يسهل هضمها وحفظها، فهي أشبه بـ«المتون» في علم الفقه وغيره من العلوم الإسلامية، والمتون دائما تحتاج إلى شروح توضح مراميها، وتكمل ما سكتت عنه، وتستدل لما ذكرته من أحكام وقضايا.

لمن كتب حسن البنا هذه الأصول:

وسؤال ثالث قد يسأل هنا، وهو: لمن كتب حسن البنا هذه الأصول العشرين؟ ومن هو المعني بخطابه هنا من أصناف الناس؟

ومن الواضح أنه خاطب بهذه الأصول صنفين:

الأول: الإخوان العاملين أو المجاهدين من جماعة «الإخوان المسلمين»، فمن المعلوم أن «الإخوان» هيئة عامة، قامت لتجديد الإسلام في عقول المسلمين ونفوسهم وحياتهم: اعتقادا، وفكرا، وخلقا، وسلوكا. وقد ضمت في صفوفها ألوانا مختلفة من الناس، منهم السلفي، ومنهم الصوفي، منهم المتمسك بمذهبه، ومنهم لا يرى التمذهب، منهم المحافظ الميال إلى القديم، ومنهم المتحرر الميال إلى الجديد، منهم المثقف بالثقافة الشرعية، ومنهم المثقف بالثقافة المدنية ... إلخ.

وهذه الأمزجة والاتجاهات المختلفة تحتاج إلى «قواسم مشتركة» في الفكر، تجمع بينها، على اختلاف نزعاتها، وتوحد مفاهيمها الأساسية في القضايا الكلية، والمسائل الدينية الكبرى، وإن بقي بعض الاختلاف في الفرعيات والتفصيلات التي يتعذر أن يتفق الناس عليها.

الصنف الثاني: يتمثل في الجماعات والفئات الدينية المختلفة، التي كانت تضمها الساحة المصرية، يوم كتب الإمام البنا هذه الأصول، وهي شبيهة إلى حد كبير بما نحن عليه اليوم، وقديما قال الشاعر العربي: ما أشبه الليلة بالبارحة! وقال من قال من الغربيين: التاريخ يعيد نفسه!

ومهما اختلف الناس في صدق هذه المقولة، فإن مما لا يجحد أن كثيرا من المواقف والأوضاع قد تتكرر أو تتشابه إلى حد بعيد.

أجل ... كانت عين حسن البنا رضي الله عنه وهو يكتب هذه الأصول العشرين - مركزة على الجماعات الدينية المختلف بعضها مع بعض، التي تتبادل التجريح والاتهام، إلى حد التفسيق، بل التكفير.

وقد رأى ذلك بعيني رأسه، ولمس آثاره براحتيه، فمنذ بزغ فجر دعوته بمدينة الإسماعيلية حيث الجماعات الدينية ذات الاتجاه السلفي، أو السني، تمثل اتجاها، وهي فيما بينها تتراشق التهم، ثم الجماعات الصوفية بطرقها ومشايخها وأتباعها وشاراتها، تمثل اتجاها آخر، معاديا ومناقضا للاتجاه الأول، وبينهما حرب جدلية لا يخمد أوارها.

ثم هناك العلماء والوعاظ والخطباء الذين لا ينتمون لأحد المعسكرين، والذين لا يعجبون أولئك ولا هؤلاء، ولا يعجبهم أيضا أولئك ولا هؤلاء.

كان هذا ما رآه ولمسه حسن البنا في الإسماعيلية، ثم ما رآه بعد ذلك في القاهرة - بصورة أكبر - بين الاتجاهات الدينية المختلفة.

ولما كان الرجل مشغول الفكر والقلب بتوحيد الأمة المسلمة التي فرقتها الخلافات من كل جانب، حتى قاتل بعضها بعضا في أيام الحرب العالمية الأولى، وقد سقطت آخر راية كانت تجمع أمة الإسلام تحت ظل العقيدة، وهي راية الخلافة سنة 1924م، وبرزت النزعات القومية والوطنية، بديلا للوحدة الإسلامية، والقومية الإسلامية.

لهذا كان من المهم - بل من الضروري - توحيد الجبهة الداخلية الإسلامية بكل وسيلة ممكنة: جبهة الداعين إلى الإسلام، والرافعين لشعاراته المتنوعة، والعمل على تضييق دائرة الخلافات الدينية والفكرية بينهم، وجمعهم على «الحد الأدنى» من الأصول والمفاهيم الإسلامية التي توحد ولا تفرق، وتقرب ولا تباعد.

وحين أنشئ اتحاد للجماعات الدينية في مصر، أو حين أريد إنشاؤه تقدم

الشهيد بهذه الأصول المركزة؛ لتكون محورا تلتقي عليه هذه الجماعات المختلفة.

من مزايا هذه الأصول:

ومن هنا نلاحظ في هذه الأصول عدة أمور:

أولا: أنها تتجه غالبا إلى المسائل التي تختلف فيها وجهات النظر، بين المدارس الدينية قديما وحديثا، كالخلاف بين السلف والخلف من المتكلمين، والخلاف بين الاتجاه الصوفي والاتجاه السلفي، والخلاف بين أنصار التقليد المذهبي و«اللامذهبيين» ...

ثانيا: أنها مصوغة بحكمة واعتدال، بحيث يمكن أن يلتقي عليها العقلاء من أتباع هذه المدارس، إذا توافر القدر الضروري من الفهم والإخلاص والتسامح.

ثالثا: أنه قصد فيها إلى التركيز والإيجاز، لا إلى الشرح والتفصيل؛ لأن التوسع والتفصيل في هذه الأمور يتيح فرصة أكبر للخلاف، وتعدد الآراء وتضاربها وهو عكس المقصود.

رابعا، أنها لم تعن كثيرا بالتوجه إلى العلمانيين، والمثقفين ثقافة غربية، ولو كان ذلك من قصدها واهتمامها لأضافت إلى هذه الأصول أصولا أخرى.

ولهذا حين أردت أن أقدم معالم الإسلام لهؤلاء في كتابي «الإسلام والعلمانية وجها لوجه» ذكرت ثمانية عشر معلما، أو أصلا، ذات مضمون

آخر، ووجهة أخرى[12]، وأعتقد أنه لو كان الإمام الشهيد مكاني لفعل مثل ما فعلت، ولكل مقام مقال.

وأود أن أقول كلمة هنا عن اتجاه التوحيد والتجميع والتوفيق بين المختلفين الذي تميزت به صياغة الإمام الشهيد لهذه الأصول.

اتجاه التجميع والتوفيق:

ولا ريب أن الاتجاه التوحيدي والتوفيقي في هذه الأصول واضح كل الوضوح، وحينما بدأت أكتب في شرح هذه الأصول وعلى الأصح أنشر بعض ما كان عندي من شرحها، عندما بدأت مجلة «الدعوة» في الظهور في أوائل السبعينات بإشراف المرشد الثالث الأستاذ عمر التلمساني رحمه الله جعلت لها عنوانا أساسيا ثابتا، هو: «نحو وحدة فكرية إسلامية»، ومن توفيق الله لنا أن شيخنا الغزالي - ظظظ ومد في عمره في خدمة الإسلام - لحظ هذا الملحظ نفسه، فسمى كتابه الذي شرح فيه هذه الأصول العشرين «دستور الوحدة الثقافية المسلمين».

وقد كان التكوين العقلي والنفسي لحسن البنا يتجه إلى البناء لا الهدم، وإلى الجمع لا التفريق.

وهذا هو السر في أن الإمام حسن البنا لم يفصل في بعض الأمور، وتركها لكل فريق يرى فيها رأيه، حسبما يلوح له من الأدلة، كما في موضوع «التوسل» بالنبي صلى الله عليه وسلم أو بالصالحين.

---

(12) انظر: كتابنا «الإسلام والعلمانية وجها لوجه» (ص36 - 47) ط. دار الصحوة بالقاهرة.

فبعد أن أكد ضرورة أن يكون المدعو والمتوسل إليه هو الله تتت ذكر أن قضية التوسل «بجاه النبي ونحوه» تدخل في مسائل «الفروع العملية» التي يبحث فيها علم «الفقه»، وليست من «الأصول العقائدية» التي يبحث فيها علم «التوحيد»؛ لأنها تتعلق بالخلاف في كيفية الدعاء، فتخرج ذلك من العقيدة إلى العمل.

وبعض المتحمسين لوجهة معينة يعيبون على الشيخ رحمه الله أنه لم يحسم في هذا الأمر برأي قاطع، وذلك لأنهم ينظرون من زاوية غير زاويته، ويسعون إلى هدف غير هدفه، ويسلكون سبلا غير سبيله.

فالرجل يريد أن يجمع الأمة على الأهداف الكبرى، وأن يحشد صفوفها - على اختلاف وجهاتها - في مقابلة القوى المعادية للإسلام جهرا، والمتربصة به سرا، ويحرص على أن تتناسى الخلافات الجزئية فيما بينها لتقف أمام أعدائها صفا كأنهم بنيان مرصوص.

وليس معنى هذا أن يتنازل عن أساسيات الإسلام، فهذا غير وارد في هذا المقام بحال من الأحوال.

ولهذا أنكر ادعاء الكشف والإلهام والرؤى، واعتبارها مصدرا للأحكام والسلوك، وأنكر الخرافات والشركيات المتعلقة بالتمائم والرقى والكهانة وزيارة القبور والغلو في الأولياء والكرامات ونحوها.

كما أنكر الابتداع في الدين، وشرع ما لم يأذن به الله ... إلخ، ودعا إلى التمسك بالكتاب والسنة، والرجوع إليهما في معرفة أحكام الإسلام.

فالتجميع والتوفيق الذي حرص عليه الإمام البنا إنما هو في الأمور التي

تتعدد فيها الاجتهادات وتختلف فيها وجهات النظر، فلا بأس من تركها دون حسم.

وهذا هو شأن الراسخين من أهل العلم، الذين كثيرا ما يسألون فيقولون: لا ندري، أو يذكرون أقوال أهل العلم قبلهم واختلافهم فيها، ولا يرجحون قولا على قول.

وقد روى هذا عن الإمام الشافعي رضي الله عنه في عدد من المسائل، وعقب على ذلك الإمام الرازي في «المحصول» فقال: «هذا يدل على كمال منصبه في العلم والدين.

أما العلم: فلأن كل من كان أغوص نظرا، وأدق فكرا، وأكثر إحاطة بالأصول والفروع، وأتم وقوفا على شرائط الأدلة، كانت الإشكالات عنده أكثر.

أما المصر على الوجه الواحد - طول عمره - في المباحث الظنية بحيث لا يتردد فيه، فذلك لا يكون إلا من جمود الطبع، وقلة الفطنة، وكلال القريحة، وعدم الوقوف على شرائط الأدلة والاعتراضات.

وأما الدين - فمن وجهين:

الأول: أنه لما لم يظهر له فيه وجه الرجحان: لم يستح من الاعتراف بعدم العلم، ولم يشتغل بالترويج والمداهنة، بل صرح بعجزه عما هو عاجز فيه، وذلك لا يصدر إلا عن الدين المتين.

كيف وقد نقل عن عمر رضي الله عنه اعترافه بعدم العلم، في كثير من

المسائل[13]، وجميع المسلمين عدوا ذلك من مناقبه وفضائله، فكيف جعلوه عيبا ههنا؟!

والثاني: وهو أنه رضي الله عنه لم يقل ابتداء: «إني لا أعرف هذه المسألة»، بل وجد المسألة واقعة بين أصلين، فذكر وجه وقوعها بينهما، وكيفية اشتباهها بهما، ثم لما لم يظهر له الرجحان تركها على تلك الحالة ليكون ذلك بعثا له على الفكر بعد ذلك، وحثا لغيره من المجتهدين على طلب الترجيح.

وهذا هو اللائق بالدين المتين، والعقل الرصين، والعلم الكامل، بل من أنصف واعترف بالحق: علم أن ذلك مما يدل على رجحان حاله، على حال سائر المجتهدين: في العلم والدين»[14].

وما لاحظه الإمام البنا منذ نحو نصف قرن - من الحاجة إلى التجميع والتوفيق - لا زلنا نلاحظه إلى اليوم.

ففي البلاد التي زرتها داخل العالم الإسلامي، وفي الجاليات والتجمعات الإسلامية التي التقيت بها خارج العالم الإسلامي، وفي المؤتمرات والندوات التي شاركت فيها في أقطار شتى في المشرق والمغرب - كان هناك سؤال مشترك يتكرر ويلح ويضغط علينا نحن الداعين للإسلام، والمنتمين إلى

(13) نحو هذا روي عن سيدنا عمر رضي الله عنه في مواضع كثيرة، منها ما يتعلق بميراث الجد والإخوة، وميراث الكلالة، وبعض أبواب الربا، وقد أخرج ذلك عنه البخاري ومسلم وغيرهما. وانظر: «سنن البيهقي» (245/6)، و«فتح القريب» (39/1).

(14) «المحصول في علم أصول الفقه» للإمام فخر الدين الرازي. تحقيق. د. طه جابر العلواني، (527/2/2، 528).

الجماعات والحركات الإسلامية.

هذا السؤال يقول: لماذا يظل الخلاف قائما بين الجماعات الإسلامية؟ ولماذا لا تتوحد كلها في جماعة أو حركة إسلامية عالمية كبرى بدل هذه الجماعات المتفرقة المتناثرة؟! إن الاتحاد يقوي القلة، والاختلاف يضعف الكثرة، ولماذا الاختلاف بينها؟ أليست كلها تعمل لنصرة الإسلام وإقامة دولة الإسلام؟! أوليس الإسلام هدف الجميع، ومنطلق الجميع؟ فلماذا يتفرقون ولا يجتمعون؟ ولماذا يختلفون ولا يتوحدون؟

وكم تمنى دعاة مخلصون أن تقوم في عصرنا حركة إسلامية عالمية واحدة، تضم كل الحركات، وتستوعب كل الطاقات، فتكون أقدر على التصدي لتكتلات القوى المعادية، ومؤامرات الصهيونية، والصليبية، والشيوعية، والوثنية، التي قد تختلف فيما بينها وتتفق علينا.

ومما لا يخفى على دارس أن هناك عقبات جمة تقف في سبيل هذه الوحدة المرغوبة، فالوحدة تقتضي الاتفاق على الأهداف، وعلى ترتيبها.

ثم على المناهج والوسائل التي تتخذ لتحقيق الأهداف المنشودة.

ثم على القيادة والثقة بإخلاصها، وكفايتها، وقدرتها على استخدام تلك الوسائل لتحقيق تلك الأهداف.

وهذا ليس من اليسير أن يتوافر إلا داخل الجماعة الواحدة.

ولهذا أرى أن الحلم بالحركة التي تستوعب كل الحركات، أو الجماعة التي تضم كل الجماعة - حلم جميل، ولكنه - بمنطق الواقع - بعيد التحقيق.

واعتقادي الذي سجلته في أكثر من كتاب: أنه ليس من الضروري توحيد الجماعات الإسلامية، وصبها في قالب واحد، بل يكفي التقريب بينها، وإزالة أسباب التنافر والتناكر بين بعضها وبعض، والعمل على أن يكون بينها قدر من التنسيق والتفاهم والتعاون، بحيث يكمل بعضها بعضا، وبحيث تقف في القضايا الكبيرة جبهة واحدة، كالبنيان المرصوص، وبهذا يكون اختلافها اختلاف تنوع وثراء، لا اختلاف تناقض وصراع.

ومما يعين على هذا التقارب والتفاهم والتعاون ما ذكرناه من ضرورة توفير «حد أدنى» من «المفاهيم المشتركة» التي تجمع بين المتفرقين، وتقارب بين المتباعدين، وتوثق الصلة بين المتقاربين، وهذا ما يمكن أن تؤديه هذه الأصول إلى حد كبير.

* * *

الأصل الأول: الإسلام نظام حياة شامل

ما أحوج الدعوة الإسلامية في أيامنا إلى توضيح مفاهيمها الأصلية للناس عامة ولأنصارها خاصة، حتى لا يفهمها أحد على غير وجهها، أو يحرفها عن حقيقتها، أو يحاسبها على غير ما تدعو إليه، أو ينحرف عنها لأمر يعتقد نسبتها إليه وهي منه براء.

لهذا نحاول أن نعرض بالشرح والتحليل لـ«الأصول العشرين» التي جعلها الإمام الشهيد حسن البنا أساسا لوحدة الفهم عند جنود الحركة الإسلامية، والتي نهج فيها منهج الوسطية والتوازن، الذي لا يغلو مع الغالين، ولا يقصر مع المقصرين، ومن هنا حاول أن يصوغ هذه الأصول صياغة تتسم بالحكمة والاعتدال، وأراد بها أن تكون «محورا» يلتقي عليه أبناء الجماعات الدينية المختلفة التي تنتسب كلها إلى الإسلام، ولكنها تختلف فيما بينها على فهم بعض النقاط في الأصول أو الفروع، اختلافا قد يجرها إلى الخصام والتناحر والتنابز بالألقاب.

وربما كان منشأ هذا الخلاف فقد «الميزان» الذي يحتكمون إليه، وعدم تحديد المصدر الذي يستمدون منه المعرفة والحكم، أو الغلو في تقدير بعض الأمور على حساب أمور أخرى، أو اللدد في الخصومة وسوء الظن بالآخرين، أو عدم دقة التعبير في المسائل ذات الوجهين أو الوجوه المتعددة.

لا نعجب إذا رأينا في مصر مثلا: جماعات «أنصار السنة المحمدية» و«الجمعية الشرعية» و«شباب سيدنا محمد» و«جمعية الشبان المسلمين» وجماعات «الطرق الصوفية» وغير ذلك، وليس بينهم جميعا إلا التراشق

بالتهم، وادعاء كل منهم أنه على الحق وحده، وأن غيره على الباطل، بل ربما امتد هذا التراشق إلى حد تكفير بعضهم بعضا.

موقف التجمعات الدينية في مصر عند ظهور دعوة البنا:

وكان بين هذه الجماعات كلها عيب مشترك، هو اهتمام كل واحدة منها بناحية معينة من رسالة الإسلام، والتركيز عليها، وإهمال النواحي الأخرى، أو إسقاطها من الحساب، وربما عابت الذين يشتغلون بها ويوجهون عنايتهم إليها.

فجماعة «أنصار السنة المحمدية» تهتم بأمر «العقيدة» وتصفيتها من شوائب الشرك الأكبر والأصغر، ومحاربة المبتدعة الذين يسمونهم «القبوريين» ممن يقدسون «الأولياء» ويطوفون بـ«الأضرحة» وشن الغارة على الذين يؤولون آيات الصفات وأحاديث الصفات، كالجمعية الشرعية وغيرها، وأكبر عدو لأنصار السنة هو «المتصوفة» المحدثون منهم والأقدمون، المعتدلون والمتطرفون، النظريون والعمليون.

و«الجمعية الشرعية» تعنى بالعبادة وبخاصة الصلاة علما وعملا، وتهتم بأدائها على ما جاءت به السنة، وتحارب الابتداع في ذلك وسعها، وتنشئ مساجد خاصة بها، ولكنها تتبنى - مثل معظم علماء الأزهر - مذهب الأشاعرة في تأويل آيات الصفات وأحاديثها، ولهذا شبت الحرب بينها وبين أنصار السنة، وكان لها لهيب واستعار دام سنوات طوالا.

و«جمعية الشبان المسلمين» معنية بالجانب الثقافي، فهي تدعو لإلقاء المحاضرات، وعقد الندوات، كما تهتم بالنشاط الرياضي، الذي جذب إليها

بعض الشباب.

و«شباب سيدنا محمد» عنوا بموضوع السفور والاختلاط، وما يتعلق بالمرأة المسلمة، وجعلوا ذلك شغلهم الشاغل، ووقفوا ضد تيارات التحلل والإباحية، وتبنوا أكثر الأقوال تشددا في كل ما يتعلق بالمرأة والأسرة، ولا سيما ما يتعلق بلقاء الرجل بالمرأة، وموضوع اللباس والزينة، وأنكروا على كل من قال بإباحة كشف الوجه والكفين ... وكان النشاط في هذا الميدان هو أكبر همهم وغاية سعيهم.

وأما «الطرق الصوفية» فبعض رجالها مخلصون صادقون، وبعض منهم مقلدون جاهلون، وآخرون دجالون مرتزقون ... وحتى المخلصون الصادقون منهم عاشوا في زاوية ضيقة من زوايا الصرح الإسلامي الكبير ... وكل ما يهمهم هو الجانب الروحي التعبدي الفردي، أو الاجتماعي المحدود بحدود الطريقة، وإن لم يخل ذلك كله - عند كثير منهم - من الابتداع في العبادات، والانحراف في العقيدة، والسلبية في الأخلاق.

هذا هو موقف الجماعات الديينية، وهذا ما كان يشغلها من قضايا جزئية، عند ظهور دعوةالأستاذ البنا.

أما أمر الإسلام باعتباره شريعة ونظام حياة وأمر المسلمين باعتبارهم أمة واحدة.

أما غلبة القوانين الوضعية على شريعة الإسلام، وغلبة الأفكار الأجنبية في فكرة الإسلام، وغلبة الإباحية الغربية على تقاليد الإسلام، وغلبة الاستعمار الصليبي على ديار الإسلام وأمة الإسلام.

أما الشريعة التي أهملت، والحدود التي عطلت، والأمة التي مزقت، والخلافة التي حطمت ... والدين الذي عزل عن توجيه الحياة وقيادة المجتمع ...

أما هذا كله، فلم تشغل هذه الجماعات أنفسها به - على خطورته وأهميته - إلا بصورة ضئيلة، وفي أحيان ومناسبات نادرة، نتيجة لوجود بعض الأشخاص الأيقاظ الواعين الذين لم تكن تخلو من عدد منهم جماعة من هذه الجماعات.

كانت جل هذه الجماعات الدينية - برغم نياتها الطيبة، وجهودها المشكورة - مع الإسلام أشبه بالعميان الذين صادفوا فيلا، فأمسك كل واحد منهم بجزء منه ظنه هو الفيل، فلما سئلوا عن وصف الفيل قال أحدهم: إنه عظم مدبب أملس؛ لأنه لم يمسك إلا بنابه، وقال الثاني: بل هو جسم ضخم مفرطح؛ لأنه قد أمسك ببطنه، وقال ثالث: بل هو عمود أسطواني قائم؛ لأنه كان قد أمسك برجله، وقال رابع قولا آخر؛ لأنه أمسك بذيله، وقال خامس غير ما قاله الأربعة؛ لأنه أمسك بخرطومه ... وكل واحد من هؤلاء لم يصف الفيل، وإن قال حقا في نفسه؛ لأنه وصف ما عرفه منه فحسب، ولو عرف الفيل كله كما خلقه الله وكما يعرفه أهل البصر لغير رأيه، وعدل قوله ووصفه.

وكذلك كان هؤلاء ظن بعضهم أن الإسلام في العقيدة وحدها ... وآخر في العبادة أولا ... وثالث في الحشمة والعفاف قبل كل شيء ... ورابع في طهارة القلب ... وكل واحد من هذه الأمور صحيح، ولكنه ليس كل الإسلام، إنما هو جانب واحد منه.

ولا مانع شرعا ولا عقلا من أن تهتم جماعة من الجماعات الإسلامية بجانب واحد من الإسلام، تتخصص فيه، وتركز عليه نشاطها وجهودها، ويكون الاختلاف بين بعضها وبعض اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد(15)، إنما الممنوع أن تنكر النظرة الشاملة للإسلام، وأن تعتقد وتشيع أن الجانب الذي تعنى به هو الإسلام وحده، وأن تنكر على الآخرين جهودهم في الميادين الأخرى، وألا نتعاون معهم في القضايا الكبرى.

موقف الأحزاب السياسية:

وإلى جوار هذه الجماعات والفرق الدينية، كانت هناك جماعات من نوع آخر، جماعات سياسية هي التي تسمى «الأحزاب»، كان يغلب على هذه الأحزاب - بصفة عامة - «الوطنية العلمانية»، فقد سبقت «الوطنية» ظهور «القومية»، وخصوصا في مصر، وإن لم تخل هذه الأحزاب من رجال متدينين في خاصة أنفسهم وسلوكهم الشخصي، إذ لم تكن هذه الأحزاب عقائدية بالمعنى الذي عرف به بعض الأحزاب بعد ذلك في بلاد عربية أخرى غير مصر.

وكان معظم قادة الأحزاب من الرجال الذين تثقفوا ثقافة أجنبية عن طريق البعثات إلى أوروبا، أو عن طريق المدارس الأجنبية والتبشيرية في أوطانهم نفسها، أو عن طريق المنهج المسموم الذي وضعه «دنلوب» وأمثاله من المبشرين وأعوان المستعمرين المسيطرين على أزمة التعليم والتوجيه ...

---

(15) عرضت لتوضيح فكرة «اختلاف التنوع والتخصص» بين الجماعات الإسلامية في أكثر من كتاب لي، وخصوصا: «أين الخلل؟» و«الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم».

وكانت فكرة هؤلاء عن الإسلام صورة مطابقة من فكرة الأوربيين عن المسيحية، فهو مجرد علاقة بين المرء وربه، أي: هو دين «لاهوتي» محض، لا علاقة له بنظام الدولة ولا بشئون الحياة والسياسة والحكم، فهذه تخضع لتطور الزمن، وتجارب الفكر الإنساني، الذي يضيف كل يوم جديدا إلى تراث الحضارة وحياة الإنسان.

كما أن الفكرة السائدة لدى جمهور المثقفين بالثقافة الحديثة: أن الدين والعلم طريقان متقابلان لا يلتقيان، وأن الأمة الناهضة التي تريد التقدم بحق هي التي تسلك سبيل العلم، وتنشئ عليه أبناءها، وتقيم بناءها، وتدع الدين في ركن قصي من حياتها(16)، إن كان لا بد من بقائه!

مقاومة التجزئة المصطنعة لدعوة الإسلام:

هذا هو الإطار الذي وضع فيه الإسلام، وهذا هو الفهم السائد له حين ظهور دعوة الإخوان المسلمين، وكان على مؤسس الدعوة رحمه الله أن يواجه هذا الفهم القاصر لرسالة الإسلام، وأن يبرز الجانب الثقافي والاجتماعي والسياسي والجهادي منه.

وأن يقاوم هذه التجزئة المصطنعة لدعوته الشاملة، هذه التجزئة التي تريد أن تجعل الإسلام «نصرانية» أخرى تتخذ اسم الإسلام، وهو منها براء.

لهذا أكد الإمام الشهيد هذا المعنى وكرره في رسائله ومقالاته وأحاديثه ومحاضراته: معنى «شمول الإسلام» كما شرعه الله ورسوله، وتميز بذلك

(16) رددنا على هذا الفهم الخاطئ ردا علميا مفصلا في كتابنا «بينات الحل الإسلامي» فصل «الدين في عصر العلم» فليرجع إليه، نشرته «مكتبة وهبة» القاهرة، و«مؤسسة الرسالة» بيروت.

عن سائر الجماعات الأخرى حتى سمي ذلك «إسلام الإخوان المسلمين»، كما في رسالة «المؤتمر الخامس».

ولا غرو أن كان الأصل الأول من الأصول العشرين في رسالة «التعاليم» - التي وضعها حسن البنا ليوضح فيها أركان الدعوة - يقرر ذلك بجلاء ووضوح فيقول: «الإسلام نظام شامل، يتناول مظاهر الحياة جميعا، فهو دولة ووطن، أو حكومة وأمة، وهو خلق وقوة، أو رحمة وعدالة، وهو ثقافة وقانون، أو علم وقضاء، وهو مادة وثروة، أو كسب وغنى، وهو جهاد ودعوة، أو جيش وفكرة، كما هو عقيدة صادقة وعبادة صحيحة سواء بسواء».

اهتمت دعوة الإخوان المسلمين بالتركيز على الجوانب الإسلامية التي أغفلت عمدا أو جهلا من رسالة الإسلام، مثل: الدولة والأمة والجهاد، والاقتصاد والثقافة والقانون ... وما إلى ذلك، بعد أن بذل الاستعمار جهوده الجبارة وأنفق ملايين طائلة، وربى تلاميذ مخلصين لأفكاره، يعملون بكل ما أوتوا لتجريد الإسلام من معنى «الحكم والدولة» كما فعل علي عبد الرازق في كتابه «الإسلام وأصول الحكم»، وكما طبق ذلك كما أتاتورك في تركيا ... وتجريده من معنى «الجهاد والقوة» كما دعا إلى ذلك غلام أحمد القادياني في الهند، ومن تبعه من صنائع الإنجليز، فقد كان كل هم «القادياني» أن يثبت دعويين كبيرتين:

إحداهما: طاعة ولي الأمر، ولو كان كافرا.

والثانية: إبطال الجهاد في سبيل الله.

ولا يستفيد من هاتين الدعويين أحد إلا الاستعمار المتسلط على ديار المسلمين، المتحكم في رقابهم، والمستلب لخيراتهم.

لماذا تبنى الإمام البنا فكرة الشمول؟

ولم يكن للإمام البنا وجماعته خيار في تبني هذا الشمول لمعنى الإسلام لأسباب ثلاثة:

شمول تعاليم الإسلام:

الأول: أن الإسلام الذي شرعه الله لم يدع جانبا من الحياة دون آخر، فهو بطبيعته شامل لكل نواحي الحياة، مادية وروحية، فردية واجتماعية، حتى إن أطول آية في كتاب الله أنزلت في شأن من شئون الدنيا هو كتابة «الديون»: {**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ** ...} [البقرة: 282] الآية.

والقرآن الذي يقول: {**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ** ...} [البقرة: 183] هو نفسه الذي يقول في نفس السورة: {**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ**} [البقرة: 178]، وهو الذي يقول فيها: {**كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ**} [البقرة: 180]، ويقول في ذات السورة: {**كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ**} [البقرة: 216] عبر القرآن عن فرضية هذه الأمور كلها بعبارة واحدة: {**كُتِبَ عَلَيۡكُمُ**}.

فهذه الأمور كلها مما كتبه الله على المؤمنين، أي: فرضه عليهم: الصيام

من الأمور التعبدية، والقصاص في القوانين الجنائية، والوصية فيما يسمى «الأحوال الشخصية»، والقتال في العلاقات الدولية.

وكلها تكاليف شرعية يتعبد بتنفيذها المؤمنون، ويتقربون بها إلى الله، فلا يتصور من مسلم قبول فرضية الصيام، ورفض فرضية القصاص أو الوصية أو القتال.

إن الشريعة الإسلامية حاكمة على جميع أفعال المكلفين، فلا يخلو فعل ولا واقعة من الوقائع إلا ولها فيها حكم من الأحكام الشرعية الخمسة، كما قرر ذلك الأصوليون والفقهاء من كل الطوائف والمذاهب المنتسبة إلى الملة.

وقد دل على هذا الشمول القرآن والسنة، فقد قال تعالى مخاطبا رسوله صلى الله عليه وسلم: {**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ**} [النحل: 89].

وقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ترك أمرا يقربنا من الله إلا وأمرنا به، ولا ترك أمرا يبعدنا عن الله إلا نهانا عنه، حتى تركنا على المحجة البيضاء: «**ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك**»(17).

فالإسلام هو رسالة الحياة كلها، ورسالة الإنسان كله، كما أنه رسالة العالم كله، ورسالة الزمن كله(18).

---

(17) من حديث رواه ابن ماجه (43)، وأحمد في «مسنده»، والحاكم من طريقه عن العرباض بن سارية «المستدرك» (96/1، 97)، وابن أبي عاصم في «السنة» بإسناد حسن كما قال المنذري.

(18) انظر في ذلك: خصيصة «الشمول» من كتابنا «الخصائص العامة للإسلام»، وكذلك «الفهم الشمولي للإسلام والتحذير من تجزئة الإسلام» من كتابنا «الصحوة الإسلامية

الإسلام يرفض تجزئة أحكامه وتعاليمه:

الثاني: أن الإسلام نفسه يرفض تجزئة أحكامه وتعاليمه وأخذ بعضها دون بعض.

وقد اشتد القرآن في إنكار هذا المسلك على بني إسرائيل، فقال تعالى في خطابهم: {**أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**} [البقرة: 85].

ولما أحب بعض اليهود أن يدخلوا في الإسلام بشرط أن يحتفظوا ببعض الشرائع اليهودية مثل: تحريم يوم السبت، أبى الرسول عليهم ذلك، إلا أن يدخلوا في شرائع الإسلام كافة.

وفي ذلك نزل قوله تعالى: {**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ**} [البقرة: 208][(19)].

وخاطب الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم فقال: {**وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ**} [المائدة: 49].

فهنا يحذر الله رسوله من غير المؤمنين أن يصرفوه عن بعض أحكام

= وهموم الوطن العربي والإسلامي» (ص68 - 98).

(19) يقول ابن كثير في تفسير الآية: «يقول الله تعالى آمرا عباده المؤمنين به، المصدقين برسوله: أن يأخذوا بجميع عرى الإسلام وشرائعه، والعمل بجميع أوامره، وترك جميع زواجره، ما استطاعوا من ذلك» «تفسير ابن كثير» (247/1) ط. دار إحياء التراث العربي بيروت.

الإسلام، وهو خطاب لكل من يقوم بأمر الأمة من بعده.

والحقيقة أن تعاليم الإسلام وأحكامه في العقيدة والشريعة والأخلاق والعبادات والمعاملات لا تؤتي أكلها إلا إذا أخذت متكاملة، فإن بعضها لازم لبعض، وهي أشبه «بوصفة طبية» كاملة مكونة من غذاء متكامل، ودواء متنوع، وحمية وامتناع من بعض الأشياء، وممارسة لبعض التمرينات، فلكي تحقق هذه الوصفة هدفها لا بد من تنفيذها جميعا، فإن ترك جزء منها قد يؤثر في النتيجة كلها.

الحياة وحدة لا تتجزأ ولا تنقسم:

الثالث: أن الحياة نفسها وحدة لا تنقسم، وكل لا يتجزأ.

ولا يمكن أن تصلح الحياة إذا تولى الإسلام جزءا منها كالمساجد والزوايا يحكمها ويوجهها، وتركت جوانب الحياة الأخرى لمذاهب وضعية، وأفكار بشرية، وفلسفات أرضية، توجهها وتقودها.

لا يمكن أن يكون للإسلام المسجد، ويكون للعلمانية المدرسة والجامعة والمحكمة والإذاعة والتلفاز والصحافة والمسرح والسينما، والسوق والشارع، وبعبارة أخرى: الحياة كلها!

كما لا يمكن أن يصلح الإنسان إذا كان توجيه الجانب الروحي له من اختصاص جهة كالدين، والجانب المادي والعقلي له من اختصاص جهة أخرى كالدولة اللادينية.

فالواقع أن لا مثنوية في الإنسان، ولا في الحياة، فليس فيه ولا فيها انقسام ولا انفصال.

إنه هو الإنسان بروحه ومادته، فلا فصل ولا تفريق، كما يؤيد ذلك العلم الحديث نفسه، وكذلك الحياة.

إن الإنسان لا ينقسم، والحياة أيضا لا تنقسم.

وكل الفلسفات والمذاهب الثورية أو «الإيديولوجيات» الانقلابية في التاريخ وفي عصرنا ذات طابع كلي شمولي، ولهذا ترفض تجزئة الحياة، وتأبى أن تسيطر على جزء منها دون جزء، بل لا بد أن تقودها كلها، وتوجهها جميعا وفقا لفلسفتها، ونظرتها الكلية للوجود وللمعرفة وللقيم، ولله والإنسان والتاريخ.

يقول أحد الاشتراكيين العرب المعروفين[20] في تبرير هذا الاتجاه: «إن فهم الاشتراكية على أنها نظام اقتصادي فحسب هو فهم خاطئ، فالاشتراكية تقدم حلولا اقتصادية لمسائل كثيرة، ولكن هذه الحلول جميعا ليست إلا ناحية واحدة من نواحي الاشتراكية، وفهمها على أساس هذه الناحية الواحدة فهم خاطئ لا ينفذ إلى الأعماق، ولا يتعرف إلى الأسس التي تقوم عليها الاشتراكية، ولا يتطلع إلى الآمال البعيدة التي تذهب إليها الاشتراكية».

« ... فالاشتراكية مذهب للحياة، لا مذهب للاقتصاد، مذهب يمتد إلى الاقتصاد والسياسة والتربية والتعليم والاجتماع والصحة والأخلاق والأدب والعلم والتاريخ، وإلى كل أوجه الحياة كبيرها وصغيرها.

وأن تكون اشتراكيا يعني أن يكون لك فهم اشتراكي لكل هذا الذي ذكرت،

(20) هو الدكتور منيف الرزاز - الذي انتخب زمنا ما أمينا عاما لحزب البعث الاشتراكي العربي في كتاب «دراسات في الاشتراكية» الذي صدر عام 1960م، ويحمل مقالات لعدد من قادة «البعث».

وأن يكون لك كفاح اشتراكي يضم كل هذا الذي ذكرت».

ثم يؤكد الكاتب أن هذه النظرة الشاملة ليست مقصورة على الاشتراكية، وإنما هي الأساس في المذاهب الاجتماعية الأخرى.

ولقد برر الكاتب شمول المذاهب الاجتماعية، واتساع نطاقها بحيث تتسع إلى كل المجالات، وأن تضع الحلول لكل المشكلات بأن: « ... سبب هذه النظرة الشاملة ـ أن الحياة نفسها شيء واحد ... تيار واحد، لا يعرف هذا التقسيم الذي يخترعه عقلنا، لكي يسهل على نفسه إدراك حقائق الحياة، ثم ينسى أنه هو نفسه الذي قام بهذا التقسيم، ويظن أن الحياة كانت مقسمة هكذا منذ الأزل.

فالحياة لا تعرف شيئا اسمه الاقتصاد، منفصلا عن شيء اسمه الاجتماع، وشيء آخر اسمه السياسة.

الحياة شيء متكامل متصل، ولكن عقلنا العاجز المغرم بالتحليل والدرس لن يتمكن من القيام بهذا التحليل والدرس، إذا واجه الحياة ككل قائم بذاته، فهو مضطر إلى أن يقسم الحياة إلى أوجه، وإلى ألوان، وإلى أنواع من العلاقات، فيسمي بعضها اقتصادا، ويسمي بعضها الآخر سياسة، وبعضها اجتماعا، وأخلاقا، ودينا، وتاريخا، وأدبا، وعلما ... إلى آخر هذه السلسلة إن كان لها آخر ...

الحياة ... كالنهر، شيء واحد متصل مستمر ... وكذلك حياة أي مجتمع، كبير أو صغير ـ أمة أو أسرة، حكومة أو حزب.

فموقف أي مجتمع إزاء الحريات السياسية يقرر موقفه من الاقتصاد،

وموقفه من النظم الاقتصادية يقرر موقفه من الحريات السياسية، وكذلك من الاستعمار ومن الأخلاق، ومن التعليم، ومن الأدب، ومن التاريخ ... إلى آخر هذه السلسلة التي لا تنتهي».

ويخلص الكاتب من ذلك إلى تأكيد الصفة الشاملة للاشتراكية فيقول: « ... بهذا المعنى تصبح كلمة الاشتراكية إذن كلمة لا تقتصر على التعبير عن حالة اقتصادية معينة فحسب، بل هي تعبير عن نوع من الحياة بأكملها بجميع وجوهها». اهـ.

هذه هي طبيعة الأيديولوجيات الانقلابية كلها، فلماذا يراد للإسلام وحده - وهو بطبيعته رسالة شاملة: عقيدة، وشريعة، وأخلاقا، وحضارة - أن يقصر رسالته على المساجد والمحاكم الشرعية؟!

ولعله لو رضي بذلك ما تركوه يستقل بهذه المساجد يوجهها كما يريد، ولا تلك المحاكم يقضي فيها بما يشاء(21).

إن المسيحية التي يقول إنجيلها: «دع ما لقيصر لقيصر، وما لله لله» حين وجدت الفرصة والقوة لم يسعها أن تدع شيئا لقيصر، ولم تستطع إلا أن تسود، وتوجه الحياة كلها الوجهة التي تؤمن بها، مثل كل الأيديولوجيات الدينية والعلمانية قديما وحديثا.

فإذا كان هذا شأن المسيحية، فكيف بالإسلام الذي يأبى أن يقسم الإنسان بين مادة وروح منفصلتين، أو يقسم الحياة بين الله وقيصر، وإنما يجعل

---

(21) في عدد من بلاد المسلمين اعتدت الحكومات العلمانية على الجزء الباقي لهم من التشريع، وهو المتعلق بالأسرة أو ما سمي «الأحوال الشخصية»، كما أن المسجد لم يعد حرا في أن يقول كلمة الإسلام كما يشاء، بل كما تشاء السلطة!!

قيصر وما لقيصر لله الواحد الأحد؟!

{**أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا**} [الأنعام: 114].

{**أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ**} [المائدة: 50].

جوانب أساسية في الإسلام الشامل:

أشار الإمام البنا في الأصل الأول من أصوله العشرين إلى عدة جوانب، اعتبرها أساسية في الإسلام الشامل كما يفهمه، وكما يؤمن به.

من هذه الجوانب:

1 - الجانب السياسي: وهو ما عبر عنه بقوله: «فهو دولة ووطن، أو حكومة وأمة».

2 - الجانب الأخلاقي: وهو ما عبر عنه بقوله: «وهو خلق وقوة، أو رحمة وعدالة».

3 - الجانب الثقافي أو العلمي.

4 - وكذلك القانوني أو القضائي.

وهما ما عبر عنهما بقوله: «وهو ثقافة وقانون، أو علم وقضاء».

5 - وكذلك الاقتصادي أو المادي: وهو ما عبر عنه بقوله: «وهو مادة وثروة، أو كسب وغنى».

6 - الجانب الجهادي.

7 - وكذلك الجانب الدعوي.

وهما ما عبر عنهما بقوله: «هو جهاد ودعوة، أو جيش وفكرة».

8، 9 - وهذا إلى الجانبين الأساسيين في كل دين، وهو ما عبر عنهما بقوله: «كما هو عقيدة صادقة، وعبادة صحيحة، سواء بسواء».

وهذه الجوانب كلها واضحة تمام الوضوح في ذهن الأستاذ البنا، وهي من الثبوت لديه، والرسوخ في عقله وقلبه، بحيث تعد من اليقينيات أو البديهيات الدينية، والأدلة عليها من الكتاب والسنة وهدي السلف وأقوال الأئمة أكثر من أن تحصر.

ولهذا ظل يؤكدها كل التأكيد في كل مناسبة، ليتعلم الجاهل، ويتنبه الغافل، ويتذكر الناسي، ويتثبت المرتات، ويزداد الذين آمنوا إيمانا.

أكدها في بياناته ومؤتمراته العامة، وفي لقاءاته وجلساته الخاصة، وفي دروسه ومحاضراته، وفي رسائله ومقالاته.

وما نشر من رسائل البنا أبين برهان على ما نقول.

نقرأ ذلك في رسالة المؤتمر الخامس «وقد انعقد سنة 1357هـ» الذي تحدث فيها عن «إسلام الإخوان المسلمين» بشموله وتكامله[22]، مبينا شمول الفكرة، وشمول الحركة أيضا، وتنوع أنشطتها التي استوعبت كل جوانب الحياة تقريبا.

وفي مؤتمر طلبة الإخوان المسلمين الذي انعقد في نفس السنة وقد تحدث فيه عن الإسلام الشامل، وعن الدين والسياسة، داخلية أو خارجية، وعن سعة التشريع الإسلامي.

---

(22) انظر: نص كلام الإمام الشهيد في الملحق آخر الكتاب.

وفي رسالة «نحو النور» الذي بعث بها إلى الملك فاروق وإلى رئيس حكومة مصر، وإلى عدد من الملوك والرؤساء والشخصيات البارزة في العالم الإسلامي «وذلك في سنة 1366هـ» مبينا فيها: أن الإسلام كفيل بإمداد الأمة الناهضة بكل ما تحتاج إليه.

وفي رسالة «مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي» وهي في الأصل مقالات كتبها في جريدة «الإخوان المسلمون» اليومية، موجهة إلى المسئولين، ورجال الهيئات الرسمية والنيابية والشعبية والاجتماعية وموجهي الجماهير.

ولن أتعرض هنا لشرح الجوانب التسعة ـ أو على الأقل السبعة الأول المقصودة بالذكر ـ في الأصل الأول؛ لأن شرحها يعني شرح الإسلام كله.

وحسبي هنا أن أركز على جانبين على غاية من الأهمية، ركز عليهما الشهيد البنا؛ لما رأى جهل كثير من مسلمي عصره بهما، وغفلتهم عنهما.

هذان الجانبان هما: الدولة والجهاد، أو الجانب السياسي والجانب الجهادي، ومكانهما من الإسلام.

فلنخص كلا منهما بحديث، على قدر ما يتسع المقام.

مكانة الدولة من الإسلام:

«الإسلام دولة ووطن، أو حكومة وأمة» هذا أول ما أكده حسن البنا في بيان فكرة الشمول.

إن إعلان هذه الحقيقة وتأكيد هذه القضية: «أن الإسلام دولة ووطن، كما

هو عقيدة وعبادة» كان إحدى السمات البارزة التي تميزت بها الدعوة الإسلامية منذ ظهورها، أكد الشهيد البنا هذا المعنى في جميع رسائله، وكتاباته ومحاضراته، وكان لهذا التأكيد أسبابه - كما ذكرنا من قبل.

فقد استطاع الاستعمار الصليبي الذي حكم بلاد المسلمين أن يغرس في أفكار الكثيرين من أبناء المسلمين فكرة غريبة خبيثة مؤداها: أن الإسلام دين لا دولة: «دين» بالمفهوم الغربي لكلمة «الدين»، أما شئون الدولة فلا صلة له بها، وإنما ينظمها العقل الإنساني وفقا لتجاربه وظروفه المتطورة!

لقد أرادوا أن يطبقوا على الإسلام في الشرق ما طبق على المسيحية في الغرب، فكما أن النهضة هناك لم تتم إلا بعد التحرر من سلطان الدين، فكذلك يجب أن تقوم النهضة في شرقنا العربي الإسلامي على أنقاض الدين!

مع أن الدين هناك معناه الكنيسة وسلطة البابا، واستبداد رجال الكهنوت بالضمائر والأرواح، فأين هذا من الدين هنا، وليس فيه بابا ولا كهنوت ولا استبداد بالضمائر والأرواح؟![23]

على كل حال، لقد نجح الاستعمار في خلق فئات تؤمن أن الدين لا مكان له في توجيه الدولة وتنظيمها، وأن الدين شيء والسياسة شيء آخر، وأن هذا يجري على الإسلام، كما جرى على المسيحية، وكان من الشعارات المضللة التي شاعت أن «الدين لله والوطن للجميع»، وهي كلمة حق يراد بها باطل، ويمكن أن تقلب على كل الوجوه، فنستطيع أن نقول: إن الدين لله والوطن لله،

---

(23) انظر: فصل «دين لا دولة» من كتاب «الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي» للدكتور محمد البهي. وانظر: فصل «دولة إسلامية لا دولة دينية» من كتابنا «بينات الحل الإسلامي وشبهات العلمانيين والمتغربين».

أو: الدين للجميع والوطن للجميع، أو: الدين للجميع والوطن لله!

وإنما مرادهم بكلمة «الدين لله» أن الدين مجرد علاقة بين ضمير الإنسان وربه، ولا مكان له في نظام الحياة والمجتمع.

وكان أبرز مثل عملي لذلك هو «الدولة العلمانية» التي أقامها كمال أتاتورك في تركيا، وفرضها بالحديد والنار والدم على مجموع الشعب التركي المسلم، بعد تحطيم الخلافة العثمانية آخر حصن سياسي بقي للإسلام بعد صراع القرون، مع الصليبية واليهودية العالمية.

وقد أخذت الحكومات في البلاد الإسلامية الأخرى تقلد تركيا الجديدة على درجات متفاوتة، فأقصي الإسلام عن الحكم والتشريع في الأمور الجنائية والمدنية ونحوها، وبقي محصورا فيما سمي «الأحوال الشخصية» كما أقصي عن التوجيه والتأثير في الحياة الثقافية والتربوية والاجتماعية، إلا في حدود ضئيلة، وفسح المجال كل المجال للتوجيه الغربي والثقافة الغربية والتقاليد الغربية.

ولم يخف بعض الزعماء السياسيين العرب إعجابهم باتجاه أتاتورك، حتى إن زعيم حزب مصري كبير معروف ورئيس وزراء حينذاك قال في تصريح له: إنني معجب بلا تحفظ بكمال أتاتورك وفهمه لمعنى الدولة الحديثة ... ورد عليه المرشد الشهيد في خطاب معروف، نشرته جريدة «الإخوان المسلمون» اليومية فيما بعد.

وكان من أبرز المظاهر لنجاح الغزو الثقافي الغربي أن «الفكر العلماني» الدخيل الذي ينادي بفصل الدين عن الدولة لم يقف عند الرجال «المدنيين»

وحدهم، بل تعداهم إلى بعض الذين درسوا دراسة دينية في معهد إسلامي عريق كالأزهر، كما تجلى ذلك في كتاب الشيخ علي عبد الرازق «الإسلام وأصول الحكم».

ومن الإنصاف أن نقول: إن هذا الكتاب قد أحدث ضجة هائلة حين صدوره في المجتمع عامة، وفي الأزهر خاصة، وقد شكلت هيئة من علماء الأزهر لمحاكمة مؤلفه، فقضت بتجريده من شهادة العالمية، وإخراجه من زمرة العلماء، كما رد عليه كثير من العلماء والمفكرين أزهريين وغير أزهريين(24).

كان لا بد إذن من تأكيد الوقوف في وجه العلمانية ودعاتها ومبرريها، بتأكيد شمول الإسلام، وإبراز هذا الجانب الحي من أحكامه وتعاليمه: جانب الدولة، وتنظيمها، وتوجيهها بأحكامه وآدابه، وإعلان أن ذلك جزء لا يتجزأ من نظام الإسلام.

الدليل من نصوص الإسلام:

ولم يكن هذا ابتكارا من الحركة الإسلامية ومؤسسها ودعاتها، بل هو ما تنطق به نصوص الإسلام القاطعة، ووقائع تاريخه الثابتة، وطبيعة دعوته الشاملة.

أما نصوص الإسلام فحسبنا منها آيتان من سورة النساء: {**إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا**

(24) ممن ردوا عليه العلامة المجاهد محمد الخضر حسين، شيخ الأزهر الأسبق في كتاب سماه «نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم».

يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا 58 يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ} [النساء: 58، 59].

فالخطاب في الآية الأولى للولاة والحكام، أن يرعوا الأمانات ويحكموا بالعدل، فإن إضاعة الأمانة والعدل نذير بهلاك الأمة وخراب الديار، ففي الصحيح: «**إذا ضيعت الأمانة فانتظروا الساعة**»، قيل: وكيف إضاعتها؟ قال: «**إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة**»[25].

والخطاب في الآية الثانية للرعية المؤمنين: أن يطيعوا «أولي الأمر» بشرط أن يكونوا «منهم»، وجعل هذه الطاعة بعد طاعة الله وطاعة الرسول، وأمر عند التنازع برد الخلاف إلى الله ورسوله، أي: إلى الكتاب والسنة، وهذا يفترض أن يكون للمسلمين دولة تهيمن وتطاع، وإلا لكان هذا الأمر عبثا.

وفي ضوء الآيتين المذكورتين ألف شيخ الإسلام ابن تيمية كتابه المعروف «السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية»، والكتاب كله مبني على الآيتين الكريمتين.

وإذا ذهبنا إلى السنة، رأينا الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: «**من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية**»[26]، ولا ريب أن من المحرم على المسلم أن يبايع أي حاكم لا يلتزم بالإسلام، فالبيعة التي تنجيه من الإثم أن

---

(25) رواه البخاري في كتاب «العلم» حديث (59) الفتح (141/1) عن أبي هريرة، وكرره في كتاب «الرقاق».

(26) رواه مسلم عن ابن عمر في كتاب «الإمارة» حديث رقم (1851).

يبايع من يحكم بما أنزل الله ... فإذا لم يوجد ذلك فالمسلمون آثمون حتى يتحقق الحكم الإسلامي، وتتحقق به البيعة المطلوبة، ولا ينجي المسلم من هذا الإثم إلا أمران: الإنكار - ولو بالقلب - على هذا الوضع المنحرف المخالف لشريعة الإسلام ...

والسعي الدائب لاستئناف حياة إسلامية قويمة، يوجهها حكم إسلامي صحيح.

وجاءت عشرات الأحاديث الصحيحة عن الخلافة والإمارة والقضاء والأئمة وصفاتهم وحقوقهم من الموالاة والمعاونة على البر، والنصيحة لهم وطاعتهم في المنشط والمكره، والصبر عليهم، وحدود هذه الطاقة وهذا الصبر وتحديد واجباتهم من إقامة حدود الله ورعاية حقوق الناس، ومشاورة أهل الرأي، وتولية الأقوياء الأمناء، واتخاذ البطانة الصالحة، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ... إلى غير ذلك من أمور الدولة وشئون الحكم والإدارة والسياسة.

ولهذا رأينا شئون الإمامة والخلافة تذكر في كتب العقائد وأصول الدين، كما رأيناها تذكر في كتب الفقه، كما رأينا كتبا خاصة بشئون الدولة الدستورية والإدارية والمالية والسياسية، كـ«الأحكام السلطانية» للماوردي، ومثله لأبي يعلى، و«الغياثي» لإمام الحرمين، و«السياسة الشرعية» لابن تيمية، و«تحرير الأحكام» لابن جماعة، و«الخراج» لأبي يوسف، ومثله ليحيى بن آدم، و«الأموال» لأبي عبيد، ومثله لابن زنجويه ... وغير ذلك مما ألف ليكون مرجعًا للقضاة والحكام كـ«الطرق الحكمية»، و«التبصرة»، و«معين الحكام»، وما شابهها.

الدليل من تاريخ الإسلام:

أما تاريخ الإسلام ... فينبئنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سعى بكل ما استطاع من قوة وفكر - مؤيدا بهداية الوحي - إلى إقامة دولة للإسلام، ووطن لدعوته، خالص لأهله، ليس لأحد عليهم فيه سلطان، إلا سلطان الشريعة، ولهذا كان يعرض نفسه على القبائل ليؤمنوا به ويمنعوه ويحموا دعوته، حتى وفق الله «الأنصار» من الأوس والخزرج إلى الإيمان برسالته، فلما انتشر فيهم الإسلام جاء وفد منهم إلى موسم الحج مكون من 73 رجلا وامرأتين، فبايعوه صلى الله عليه وسلم على أن يمنعوه مما يمنعون أنفسهم وأزواجهم وأبناءهم، وعلى السمع والطاعة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ... إلخ ... فبايعوه على ذلك ... وكانت الهجرة إلى المدينة ليست إلا سعيا لإقامة المجتمع المسلم المتميز، تشرف عليه دولة مسلمة متميزة.

كانت «المدينة» هي «دار الإسلام» وقاعدة الدولة الإسلامية الجديدة، التي يرأسها رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو قائد المسلمين وإمامهم، كما أنه نبيهم ورسول الله إليهم.

وكان الانضمام إلى هذه الدولة لشد أزرها والعيش في ظلالها والجهاد تحت لوائها؛ فريضة على كل داخل في دين الإسلام حينذاك، فلا يتم إيمانه إلا بالهجرة إلى دار الإسلام، والخروج من دار الكفر والعداوة للإسلام، والانتظام في سلك الجماعة المؤمنة المجاهدة التي رماها العالم عن قوس واحدة، يقول الله تعالى: {**وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ**} [الأنفال: 72]، ويقول في شأن قوم: {**فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ**

أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ}[27] [النساء: 89].

كما نزل القرآن الكريم يندد أبلغ تنديد بأولئك الذين يعيشون مختارين في دار الكفر والحرب، دون أن يتمكنوا من إقامة دينهم وأداء واجباتهم وشعائرهم: {**إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا 97 إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا 98 فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورٗا**} [النساء: 97 - 99].

وعند وفاة النبي صلى الله عليه وسلم كان أول ما شغل أصحابه رضي الله عنهم أن يختاروا «إماما» لهم، حتى إنهم قدموا ذلك على دفنه صلى الله عليه وسلم، فبادروا إلى بيعة أبي بكر، وتسليم النظر إليه في أمورهم، وكذا في كل عصر من بعد ذلك، وبهذا الإجماع التاريخي ابتداء من الصحابة والتابعين - مع ما ذكرنا من النصوص - استدل علماء الإسلام على وجوب نصب الإمام الذي هو رمز الدولة الإسلامية وعنوانها.

ولم يعرف المسلمون في تاريخهم انفصالا بين الدين والدولة إلا عندما نجم قرن العلمانية في هذا العصر، وهو ما حذر الرسول صلى الله عليه وسلم منه، وأمر بمقاومته كما في حديث معاذ: «**ألا إن رحى الإسلام دائرة، فدوروا مع الإسلام حيث دار، ألا إن القرآن والسلطان سيفترقان - أي: الدين والدولة - فلا تفارقوا الكتاب، ألا إنه سيكون عليكم أمراء يقضون**

---

(27) إن الهجرة إلى الدولة المسلمة هو الإنضمام إلى الجماعة المسلمة التي تعمل لإقامة دولة الإسلام فهو فريضة على كل مسلم بحسب وسعه – والآية من سورة النساء:89 .

لأنفسهم ما لا يقضون لكم، فإن عصيتموهم قتلوكم، وإن أطعتموهم أضلوكم». قالوا: وماذا نصنع يا رسول الله؟ قال: «**كما صنع أصحاب عيسى ابن مريم، نشروا بالمناشير، وحملوا على الخشب، موت في طاعة الله خير من حياة في معصية الله»**(28).

الدليل من طبيعة الإسلام:

أما طبيعة الإسلام ورسالته، فذلك أنه دين عام، وشريعة شاملة، وشريعة هذه طبيعتها لا بد أن تتغلغل في كافة نواحي الحياة، ولا يتصور أن تهمل شأن الدولة، وتدعها للمتحللين والملحدين، أو الفسقة، يديرونها تبعا للهوى.

كما إن هذا الدين يدعو إلى التنظيم وتحديد المسئولية، ويكره الاضطراب والفوضى في كل شيء، حتى رأينا الرسول صلى الله عليه وسلم يأمرنا في الصلاة أن نسوي الصفوف وأن يؤمنا أعلمنا، وفي السفر يقول: «**أمروا أحدكم**».

يقول الإمام ابن تيمية في «السياسة الشرعية»: «يجب أن يعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين، بل لا قيام لدين ولا للدنيا إلا بهان فإن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع، لحاجة بعضهم إلى بعض، ولا بد عند الاجتماع من رأس، حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم**». رواه أبو داود من حديث أبي سعيد وأبي

(28) رواه إسحاق بن راهويه في «مسنده» عن سويد بن عبد العزيز، وهو ضعيف، وأحمد بن منيع ورواته ثقات كما قال البوصيري في «الإتحاف». انظر: «المطالب العالية» لابن حجر، بتحقيق: الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي - نشر أوقاف الكويت (4408/4)، ورواه الطبراني، وفيه يزيد بن مرثد لم يسمع من معاذ، وثقه ابن حبان وغيره وضعفه جماعة، وبقية رواته ثقات. انظر: «مجمع الزوائد» للهيثمي (238/5).

هريرة[29]. وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **«لا يحل لثلاثة أن يكونوا بفلاة من الأرض إلا أمروا عليهم أحدهم»**، فأوجب صلى الله عليه وسلم تأمير الواحد في الاجتماع القليل العارض في السفر، تنبيها بذلك على سائر أنواع الاجتماع.

ولأن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة، وكذلك سائر ما أوجبه من الجهاد والعدل، وإقامة الحج والجمع والأعياد، ونصرة المظلوم، وإقامة الحدود، لا تتم إلا بالقوة والإمارة، ولهذا روي: **«إن السلطان ظل الله في الأرض»**، ولهذا كان السلف كالفضيل بن عياض وأحمد بن حنبل وغيرهما يقولون: لو كانت لنا دعوة مجابة لدعونا بها للسلطان»[30]. وذلك لأن الله يصلح بصلاحه خلقا كثيرا.

ثم إن طبيعة الإسلام باعتباره منهجا يريد أن يسود ويقود ويوجه الحياة ويحكم المجتمع ويضبط سير البشر وفق أوامر الله، لا يظن به أن يكتفي بالخطابة والتذكير والموعظة الحسنة، ولا أن يدع أحكامه ووصاياه وتعليماته في شتى المجالات إلى ضمائر الأفراد وحدها، فإذا سقمت هذه الضمائر أو ماتت، سقمت معها وماتت تلك الأحكام والتعاليم، وقد قال الخليفة الثالث رضي الله عنه: «إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن».

فمن الناس من يهديه الكتاب والميزان، ومنهم من لا يردعه إلا الحديد

---

(29) ورواه الطبراني عن عبد الله، ورجاله رجال الصحيح كما في «مجمع الزوائد» (249/5).

(30) «السياسة الشرعية» ضمن «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» (390/28، 391).

والسنان، ولذا قال تعالى: {لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ} [الحديد: 25].

قال ابن تيمية: «فمن عدل عن الكتاب عدل بالحديد، ولهذا كان قوام الدين بالمصحف والسيف»(31).

وقال الإمام الغزالي: «الدنيا مزرعة الآخرة، ولا يتم الدين إلا بالدنيا، والملك والدين توأمان، فالدين أصل، والسلطان حارس، وما لا أصل له فمهدوم، وما لا حارس له فضائع، ولا يتم الملك والضبط إلا بالسلطان»(32).

إن نصوص الإسلام لو لم تجئ صريحة بوجوب إقامة دولة للإسلام، ولم يجئ تاريخ الرسول وأصحابه تطبيقا عمليا لما دعت إليه هذه النصوص، لكانت طبيعة الرسالة الإسلامية نفسها تحتم أن تقوم للإسلام دولة أو دار، يتميز فيها بعقائده وشعائره وتعاليمه ومفاهيمه، وأخلاقه وفضائله، وتقاليده وتشريعاته.

فلا غنى للإسلام عن هذه الدولة المسئولة في أي عصر، ولكنه أحوج ما يكون إليها في هذا العصر خاصة، هذا العصر الذي برزت فيه «الدولة الأيديولوجية»، وهي الدولة التي تتبنى فكرة، يقوم بناؤها كله على أساسها، من تعليم وثقافة وتشريع وقضاء واقتصاد، إلى غير ذلك من الشئون الداخلية والسياسية الخارجية، كما نرى ذلك واضحا في الدولة الشيوعية والاشتراكية، وأصبح العلم الحديث بما وفره من تقدم تكنولوجي في خدمة الدولة،

---

(31) «مجموع الفتاوى» (264/28).

(32) «إحياء علوم الدين» (71/1) كتاب «العلم».

وأصبحت الدولة بذلك قادرة على التأثير في عقائد المجتمع وأفكاره وعواطفه وأذواقه وسلوكه بصورة فعالة، لم يعرف لها مثيل من قبل، بل تستطيع الدولة بأجهزتها الحديثة الموجهة أن تغير قيم المجتمع ومثله وأخلاقه رأسا على عقب، إذا لم تقم في سبيلها مقاومة أشد.

إن دولة الإسلام «دولة فكرية»، دولة تقوم على عقيدة ومنهج، فليست مجرد «جهاز أمن» يحفظ الأمة من الاعتداء الداخلي أو الغزو الخارجي، بل إن وظيفتها لأعمق من ذلك وأكبر، وظيفتها تعليم الأمة وتربيتها على تعاليم ومبادئ الإسلام، وتهيئة الجو الإيجابي والمناخ الملائم؛ لتحول عقائد الإسلام وأفكاره وتعاليمه إلى واقع عملي ملموس، يكون قدوة لكل من يلتمس الهدى، وحجة على كل سالك سبيل الردى.

ولهذا يعرف ابن خلدون «الخلافة» بأنها: حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به[33].

ولهذا وصف الله المؤمنين حين يمكن لهم في الأرض وبتعبير آخر حين تقوم لهم دولة، فقال: {**ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ**} [الحج: 41].

إن شعار دولة الإسلام ما قاله ربعي بن عامر لرستم قائد الفرس: «إن الله بعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى

(33) «مقدمة ابن خلدون» (518/2) طبعة لجنة البيان العربي بتحقيق: د. علي عبد الواحد وافي.

سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام».

ثم إن هذه الدولة الفكرية ليست ذات صفة محلية، ولكنها دولة ذات رسالة عالمية؛ لأن الله حمل أمة الإسلام دعوة البشرية إلى ما لديها من هدى ونور، وكلفها الشهادة على الناس، والأستاذية للأمم، فهي أمة لم تنشأ بنفسها ولا لنفسها فحسب، بل أخرجت للناس، أخرجها الله الذي جعلها خير امة وخاطبها بقوله سبحانه: {**وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ**} [البقرة: 143].

ومن هنا وجدنا النبي صلى الله عليه وسلم حين أتيحت له أول فرصة - بعد صلح الحديبية - كتب إلى ملوك العالم وأمراء الأقطار في أركان الأرض يدعوهم إلى الله، والانضواء تحت راية التوحيد، وحملهم إثم أنفسهم وإثم رعيتهم إذا تخلفوا عن ركب الإيمان، وكان يختم رسائله بهذه الآية: {**يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ**} [آل عمران: 64].

حاجتنا إلى دولة تحتضن الإسلام:

إن أول ما تحتاج إليه الدعوة الإسلامية في هذا العصر أن تقوم «دار الإسلام» أو «دولة الإسلام» تتبنى رسالة الإسلام عقيدة ونظاما، وحياة وحضارة، وتقيم حياتها كلها: المادية والأدبية على أساس من هذه الرسالة الشاملة، وتفتح بابها لكل مؤمن يريد الهجرة من ديار الكفر والظلم والابتداع.

هذه الدولة المنشودة ضرورة إسلامية، وهي أيضا ضرورة إنسانية؛ لأنها

ستقدم للبشرية المثل الحي لاجتماع الدين والدنيا، وامتزاج المادة بالروح، والتوفيق بين الرقي الحضاري والسمو الأخلاقي، وتكون هي اللبنة الأولى لقيام دولة الإسلام الكبرى، التي توحد الأمة المسلمة تحت راية القرآن، وفي ظل خلافة الإسلام، ولكن القوى المعادية للإسلام تبذل جهودا جبارة مستميتة دون قيام هذه الدولة في أي رقعة من الأرض، وإن صغرت مساحتها وقل سكانها.

قد يسمح الغربيون بدولة ماركسية، وقد يسمح الشيوعيون بدولة ليبرالية، ولكن لا هؤلاء ولا أولئك يسمحون بدولة إسلامية صحيحة الإسلام.

وحين تقوم حركة إسلامية ناجحة يخشى أن تتحول إلى دولة، سرعان ما توجه إليها قوى الكفر - العالمية والمحلية - ضرباتها المحمومة، ومن تشريد وتجويع وتعذيب وتقتيل، وتشويه وتمويه، ولا تكاد تفيق من ضربة حتى يباغتوها بأخرى، لتظل دائما في شغل بآلامها عن آمالها، وبمتاعبها عن مطالبها، وبجروحها عن طموحها.

لو كانت لنا حكومة:

يقول الأستاذ البنا: «لو كانت لنا حكومة إسلامية صحيحة الإسلام، صادقة الإيمان، مستقلة التفكير والتنفيذ، تعلم حق العلم عظمة الكنز الذي بين يديها، وجلال النظام الإسلامي الذي ورثته، وتؤمن بأن فيه شفاء شعبها، وهداية الناس جميعا ... لكان لنا أن نطلب إليها أن تدعم الدنيا باسم الإسلام، وأن تطالب غيرها من الدول بالبحث والنظر فيه، وأن تسوقها سوقا إليه بالدعوات المتكررة والإقناع والدليل والبعثات المتتالية، وبغير ذلك من وسائل الدعوة

والإبلاغ، ولاكتسبت مركزا روحيا وسياسيا وعمليا بين غيرها من الحكومات، ولاستطاعت أن تجدد حيوية الشعب، وتدفع به نحو المجد والنور، وتثير في نفسه الحماسة والجد والعمل.

عجيب أن تجد الشيوعية دولة تهتف بها، وتدعو إليها، وتنفق في سبيلها، وتحمل الناس عليها، أن تجد الفاشستية والنازية أمما تقدسها، وتجاهد لها، وتعتز باتباعها، وتخضع كل النظم الحيوية لتعاليمها، وأن تجد المذاهب الاجتماعية والسياسية المختلفة أنصارا أقوياء، يقفون عليها أرواحهم وعقولهم وأفكارهم وأقلامهم وأموالهم وصحفهم وجهودهم، ويحيون ويموتون لها.

ولا نجد حكومة إسلامية تقوم بواجب الدعوة إلى الإسلام، الذي جمع محاسن هذه النظم جميعا وطرح مساوئها، وتقدمه لغيرها من الشعوب كنظام عالمي فيه الحل الصحيح الواضح المريح لكل مشكلات البشرية، مع أن الإسلام جعل الدعوة فريضة لازمة، وأوجبها على المسلمين شعوبا وجماعات قبل أن تخلق هذه النظم، وقبل أن يعرف فيها نظام الدعايات: **{وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ}** [آل عمران: 104].

ولكن أنى لحكامنا هذا، وهم جميعا قد تربوا في أحضان الأجانب، ودانوا بفكرتهم على آثارهم يهرعون، وفي مرضاتهم يتنافسون؟! ولعلنا لا نكون مبالغين إذا قلنا إن الفكرة الاستقلالية في تصريف الشئون والأعمال لم تخطر ببالهم، فضلا عن أن تكون منهاج عملهم.

لقد تقدمنا بهذه الأمنية إلى كثير من الحاكمين في مصر، وكان طبيعيا ألا

يكون لهذه الأمنية أثر عملي، فإن قوما فقدوا الإسلام في أنفسهم وبيوتهم وشئونهم الخاصة والعامة لأعجز من أن يفيضوه على غيرهم، ويتقدموا بدعوة سواهم إليه، وفاقد الشيء لا يعطيه.

ليست هذه مهمتهم أيها الإخوان، فقد أثبتت التجارب عجزهم المطلق عن أدائها، ولكنها مهمة هذا النشء الجديد، فأحسنوا دعوته، وجدوا في تكوينه، وعلموه استقلال النفس والقلب، واستقلال الفكر والعقل، واستقلال الجهاد والعمل، واملأوا روحه الوثابة بجلال الإسلام وروعة القرآن، وجندوه تحت لواء محمد ورايته، وسترون منه في القريب الحاكم المسلم الذي يجاهد نفسه ويسعد غيره[34].

الإسلام والسياسة:

جاهد الأستاذ حسن البنا جهادا كبيرا ليعلم المسلمين فكرة «شمول الإسلام»، وبعبارة أخرى: ليعيد إليهم ما كان مقررا وثابتا طوال ثلاثة عشر قرنا، أي: قبل دخول الاستعمار، والغزو الفكري إلى ديارهم، وهو: أن الإسلام يشمل الحياة كلها بتشريعه وتوجيهه: رأسيا منذ يولد الإنسان حتى يتوفاه الله، بل من قبل أن يولد، وبعد أن يموت، حيث هناك أحكام شرعية تتعلق بالجنين، وأحكام تتعلق بالإنسان بعد موته.

وأفقيا: حيث يوجه الإسلام المسلم في حياته الفردية والأسرية والاجتماعية والسياسية من أدب الاستنجاء إلى إمامة الحكم، وعلاقات السلم والحرب.

---

(34) (ص196، 197) من «مجموع رسائل الإمام الشهيد».

وكانت نتيجة هذا الجهاد واضحة، هي وجود قاعدة ضخمة تؤمن بهذا الشمول وتنادي بالإسلام عقيدة وشريعة، ودينا ودولة، في كل أقطار الإسلام، وتراجع كثيرين من ضحايا الغزو الفكري عما آمنوا به في ظل وطأة الاستعمار الثقافي، وبروز الصحوة الإسلامية على الساحة الفكرية والسياسية بصورة قلبت موازين القوى، مما جعل الجهات الأجنبية الراصدة من الغرب والشرق تعقد الكثير من الحلقات والندوات والمؤتمرات لدراسة هذه الظاهرة الإسلامية الخطيرة وتنفق في ذلك الأموال والجهود، حتى بلغ عدد هذه المنتديات - فيما ذكر الأستاذ فهمي هويدي - مئة وعشرين.

وهذا ما جعل عملاء الغرب وعبيد أفكاره يحاولون إيقاف الفجر أن يطلع أو الشمس أن تبزغ، وأن يعيدوا عجلة التاريخ إلى الوراء، إلى عهد الاستعمار ليتصايحوا من جديد: لا سياسة في الدين، ولا دين في السياسة!

يريدون أن يعيدوها جذعة، وقد فرغنا منها منذ نصف قرن، حتى سمى بعض هؤلاء العبيد المساكين الإسلام الذي لم يعرف المسلمون غيره طوال عصوره - قبل عصر الاستعمار - الإسلام كما عرفه الفقهاء والأصوليون والمفسرون والمحدثون والمتكلمون من كل المذاهب، والذي شرحوه وفصلوه من كتاب الطهارة إلى كتاب الجهاد ... إسلام العقيدة والشريعة، إسلام القرآن والسنة، سماه «الإسلام السياسي»[35]!! يريد أن يكره الناس في هذا الإسلام بهذا العنوان، نظرا لكراهية الناس للسياسة في أوطاننا، وما جرت عليهم من كوارث، وما ذاقوا على يديها من ويلات!

---

(35) انظر: الرد على هذا التهجم في الجزء الثاني من كتابي «فتاوى معاصرة» تحت عنوان «الإسلام السياسي».

ولكن ما حيلتنا إذا كان الإسلام ـ كما شرعه الله ـ لا بد أن يكون سياسيا؟ ما حيلتنا إذا كان الإسلام الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم لا يقبل أن تقسم الحياة والإنسان بين الله تعالى وقيصر؟ بل يصر على أن يكون قيصر وكسرى وفرعون وكل ملوك الأرض عبادا لله وحده!

يريدنا الكاتب المسكين أن نتخلى عن كتاب ربنا، وسنة نبينا، وإجماع أمتنا، وهدى تراثنا، لنتبنى إسلاما حديثا، يرضي عنا السادة الكبار، فيما وراء البحار!

إنه يريد «الإسلام الروحي» أو «الإسلام الكهنوتي» الذي يكتفي بتلاوة القرآن على الأموات، لا على الأحياء، ويتبرك بتزيين الجدران بآياته، أو افتتاح الحفلات بقراءة ما تيسر منه، ثم يدع قيصر يحكم بما يشاء، ويفعل ما يريد!

إن الإسلام الذي جاء به القرآن والسنة وعرفته الأمة سلفا وخلفا هو إسلام متكامل، لا يقبل التجزئة.

إنه الإسلام الروحي، والإسلام الأخلاقي، والإسلام الفكري، والإسلام التربوي، والإسلام الجهادي، والإسلام الاجتماعي، والإسلام الاقتصادي، والإسلام السياسي.

إنه ذلك كله، لأن له في كل هذه المجالات أهدافا وغايات، كما أن له فيها كلها أحكاما وتوجيهات ...

يقول الإمام البنا في علاقة الدين بالسياسة: قلما تجد إنسانا يتحدث إليك عن السياسة والإسلام إلا وجدته يفصل بينهما فصلا، ويضع كل واحد من

المعنيين في جانب، فهما عند الناس لا يلتقيان ولا يجتمعان، ومن هنا سميت هذه جميعة إسلامية لا سياسية، وذلك اجتماع ديني لا سياسة فيه، ورأيت في صدر قوانين الجمعيات الإسلامية ومناهجها «لا تتعرض الجميعة للشئون السياسية».

وقبل أن أعرض إلى هذه النظرة بتزكية أو تخطئة أحب أن ألفت النظر إلى أمرين مهمين:

أولهما: أن الفارق بعيد بين الحزبية والسياسة، وقد يجتمعان وقد يفترقان، فقد يكون الرجل سياسيا بكل ما في الكلمة من معان، وهو لا يتصل بحزب ولا يمت إليه، وقد يكون حزبيا ولا يدري من أمر السياسة شيئا، وقد يجمع بينهما، فيكون سياسيا حزبيا أو حزبيا سياسيا، على حد سواء، وأنا حين أتكلم عن السياسة في هذه الكلمة فإنما أريد السياسة المطلقة، وهي النظر في شئون الأمة الداخلية والخارجية غير مقيدة بالحزبية بحال ... هذا أمر.

والثاني: أن غير المسلمين حينما جهلوا هذا الإسلام، أو حينما أعياهم أمره وثباته في نفوس أتباعه، ورسوخه في قلوب المؤمنين به، واستعداد كل مسلم لتفديته بالنفس والمال، لم يحاولوا أن يجرحوا في نفوس المسلمين اسم الإسلام، ولا مظاهره وشكلياته، ولكنهم حاولوا أن يحصروا معناه في دائرة ضيقة تذهب بكل ما فيه من نواح قوية عملية، وإن تركت للمسلمين بعد ذلك قشور من الألقاب والأشكال والمظهريات لا تسمن ولا تغني من جوع ... فأفهموا المسلمين أن الإسلام شيء والاجتماع شيء آخر، وأن الإسلام شيء والقانون شيء غيره، وأن الإسلام شيء ومسائل الاقتصاد لا تتصل به، وأن الإسلام شيء والثقافة العامة سواه، وأن الإسلام شيء يجب ان يكون بعيدا

عن السياسة.

فحدثوني بربكم أيها الإخوان إذا كان الإسلام شيئا غير السياسة وغير الاجتماع وغير الاقتصاد وغير الثقافة فما هو إذن؟ ... أهو هذه الركعات الخالية من القلب الحاضر، أم هذه الألفاظ التي هي كما تقول رابعة العدوية: «استغفار يحتاج إلى استغفار»، ألهذا أيها الإخوان نزل القرآن نظاما كاملا محكما مفصلا: {تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ} [النحل: 89].

هذا المعنى المتضائل لفكرة الإسلام وهذه الحدود الضيقة التي حدد بها معنى الإسلام، هي التي حاول خصوم الإسلام أن يحصروا فيها المسلمين، وأن يضحكوا عليهم بأن يقولوا لهم: لقد تركنا لكم حرية الدين، وأن الدستور ينص على أن دين الدولة الرسمي هو الإسلام.

أنا أعلن أيها الإخوان من فوق هذا المنبر بكل صراحة ووضوح وقوة: أن الإسلام شيء غير هذا المعنى الذي أراد خصومه والأعداء من أبنائه، أن يحصروه فيه ويقيدوه به، وأن الإسلام عقيدة وعبادة، ووطن وجنسية، وسماحة وقوة، وخلق ومادة، وثقافة وقانون، وأن المسلم مطالب بحكم إسلامه أن يعني بكل شئون أمته، ومن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم.

وأعتقد أن أسلافنا - رضوان الله عليهم - ما فهموا للإسلام معنى غير هذا، فبه كانوا يحكمون، وله كانوا يجاهدون، وعلى قواعده كانوا يتعاملون، وفي حدوه كانوا يسيرون في كل شأن من شئون الحياة الدنيا العملية قبل شئون الآخرة الروحية، ورحم الله الخليفة الأول إذ يقول: «لو ضاع مني عقال بعير

لوجدته في كتاب الله». اهـ[36].

ويقول العالم المؤرخ الرصين الدكتور ضياء الدين الريس في كتابه «النظريات السياسية الإسلامية»[37]: «لم يعد هناك شك في أن النظام الذي أقامه رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون معه بالمدينة - إذا نظر إليه من وجهة مظهره العملي وقيس بمقاييس السياسة في العصر الحديث - يمكن أن يوصف بأنه «سياسي»، بكل ما تؤديه هاته الكلمة من معنى، وهذا لا يمنع أنه يوصف في نفس الوقت بأنه «ديني» إذا كانت وجهة الاعتبار هي النظر إلى أهدافه ودوافعه، والأساس المعنوي الذي يرتكز عليه.

فالنظام يمكن أن يوصف إذن في وقت واحد بالوصفين؛ وذلك لأن حقيقة الإسلام شاملة: تجمع بين شئون الناحيتين المادية والروحية، وتتناول أعمال الإنسان في حياتيه الدنيوية والأخروية، بل إن فلسفته عامة تمزج بين الأمرين، ولا تعترف بالتمييز بينهما إلا من حيث اختلاف وجهة النظر، أما في ذاتيتيهما فيؤلفان كلا أو وحدة منسقة، وهما متلازمان لا يمكن أن يتصور انفصال أحدهما عن الآخر، وهذه الحقيقة عن طبيعة الإسلام قد أصبحت من الوضوح بحيث لا تحتاج إلى كبير عناء لإقامة البرهان، وهي مؤيدة من حقائق التاريخ، وكانت عقيدة المسلمين في كل العصور السالفة، وقد بدأ يدركها جمهور من المستشرقين مع عدم قربهم من بيئة الإسلام، ومع ذلك فهناك نفر من أبناء الإسلام ممن ينعتون أنفسهم بأنهم «مجددون» يجاهرون بإنكارهم لهذه الحقيقة! وهم يدعون أن الإسلام ليس إلا مجرد «دعوة

---

(36) من رسالة مؤتمر طلبة الإخوان المسلمين.

(37) (ص27 - 29).

دينية»[38]، يريدون بذلك أنه ليس إلا مجرد اعتقاد أو صلة روحية بين الفرد وربه، فلا تعلق له إذن بهذه الشئون التي نصفها بأنها مادية في هذه الحياة الدنيا، ومن بين هذه الشئون: مسائل الحرب والمال، وفي طليعتها أمور السياسة، ومن أقوالهم: «إن الدين شيء والسياسة شيء آخر».

وليس من المجدي من أجل الرد على هؤلاء أن نروي لهم أقوال علماء الإسلام، فقد لا يستشعرون أنهم مقتنعون بما يقولون، ولا أن نبدأ بذكر حقائق التاريخ، فقد يعمدون إلى المكابرة فيها، ولكن يكفي أن نثبت جملة مما قال علماء الاستشراق في هذا الصدد، وقد بينوا آراءهم في عبارات صريحة قاطعة، لأن هؤلاء المجددين لا يستطيعون أن يزعموا أنهم أوثق منهم صلة بالعصر الحاضر، ولا أكثر قدرة على استعمال أساليب البحث الحديثة، واستخدام الطرق العلمية، فهذه إذن طائفة من أقوالهم:

1 - يقول الدكتور «فتزجرالد» «DR.V.FITZGERALD»[39]: «ليس الإسلام «دينا» فحسب «A POLITICAL SYSTEM»، ولكنه «نظام سياسي أيضا»، وعلى الرغم من أنه قد ظهر في العهد الأخير بعض أفراد من المسلمين، ممن يصفون أنفسهم بأنهم «عصريون»

---

(38) في مقدمة المجاهرين بهذه الآراء والمدافعين عنها الأستاذ علي عبد الرازق، القاضي الشرعي السابق بالمنصورة، ثم وزير الأوقاف فيما بعد - في كتابه الذي نشره عام 1925م بعنوان: «الإسلام وأصول الحكم»، وفوق هذه الردود التي نعرضها الآن سنعود إلى مناقشة آرائه والرد عليها بالتفصيل، في خلال الفصول القادمة. انظر بصفة خاصة الفصل الرابع من كتابنا هذا تحت عنوان: «الرد على دعاوى بعض المعاصرين» من تعليق: د. الريس.

(39) MUHAMMEDAN LAW - CH, I., P.1

يحاولون أن يفصلوا بين الناحيتين - فإن صرح التفكير الإسلامي كله قد بني على أساس أن الجانبين متلازمان، لا يمكن أن يفصل أحدهما عن الآخر». اهـ.

2 - ويقول الأستاذ «نللينو» «C. A. NALLINO»(40): «لقد أسس محمد في وقت واحد: دينا «A RELIGION» ودولة «A STATE»، وكانت حدودهما متطابقة طوال حياته».

3 - ويقول الدكتور «شاخت» «DR. SCHACHT»(41): «على أن الإسلام يعنى أكثر من دين: إنه يمثل أيضا نظريات قانونية وسياسية، وجملة القول إنه نظام كامل من الثقافة يشمل الدين والدولة معا».

4 - ويقول الأستاذ «ستروثمان» «R. STROTHMANN»(42): «الإسلام ظاهرة دينية، سياسية، إذ أن مؤسسه كان نبيا، وكان سياسيا حكيما، أو رجل دولة».

5 - ويقول الأستاذ «ماكدونالد» «D. B. MACDONALD»(43): «هنا - أي في المدينة - تكونت الدولة الإسلامية الأولى، ووضعت المبادئ

---

(40) CITED BY SIR T. ARNOLD IN HIS BOOK: THE CALIBHATE. P. 198.

(41) ENCYCLOPAEDIA OF SOCIAL SCIENCES. VOL. VIII P. 333.

(42) THE ENCYCLOPAEDIA OF ISLAM. IV. P. 350.

(43) TION - DEVELOPMENT OF MUSLIM THEOLOGY. JURISPRUDENCE. AND CANSTITU AL THEORY. «NEW YORK 1903» p. 67.

الأساسية للقانون الإسلامي».

6 - ويقول السير «توماس أرنولد» «SIR. T. ARNOLD»[44]: «كان النبي في نفس الوقت رئيسا للدين ورئيسا للدولة».

7 - ويقول الأستاذ «جب»[45]: «عندئذ صار واضحا أن الإسلام لم يكن مجرد عقائد دينية فردية، وإنما استوجب إقامة مجتمع مستقل، له أسلوبه المعين في الحكم، وله قوانينه وأنظمته الخاصة به». اهـ.

فمن لم يكن يقنعه إلا أقوال الغربيين فها هي تخرس كل مكابر.

الوطن والوطنية:

وهناك جزء آخر من الجانب السياسي أشار إليه الأستاذ البنا في الأصل الأول، وفصله في رسائله الأخرى، وهو ما يتعلق بالوطن والوطنية، فقد ذكر الوطن بجانب الدولة، حين قال: «الإسلام دولة ووطن».

والواقع أنه لا دولة بلا وطن، فمن مقومات الدولة أن يكون لها أرض مستقلة محددة الأبعاد تسود فيها وتحكم، وهذه هي الوطن.

وبعض دعاة الوطنية اتهم دعاة الإسلام بأنهم لا يتحمسون للوطن والوطنية: وهذا ليس بصحيح، فإن أوطانهم جزء من أرض الإسلام، أو دار الإسلام، التي يدافعون عنها بالأنفس والأموال، ويفدونها بالمهج والأرواح.

إنما الذي ينكرونه هو «العصبية الإقليمية» الضيقة، والمبالغة في الوطنية بحيث تصبح بديلا عن الدين، ويغدو الوطن وثنا يعبد مع الله أو من دون الله،

---

(44) The caliphate. Oxford 1924, p.30.

(45) Muhammedanism. 1949, p.3.

وتمسي العاطفة الوطنية بديلا عن العاطفة الدينية، وبعبارة أدق: العاطفة الإسلامية، ويصبح الولاء للوطن لا لله، والإقسام بالوطن لا بالله، والبداية باسم الوطن لا باسم الله، والعمل لوجه الوطن لا لوجه الله.

هذا هو الذي ينكر من الوطنية وليس حب الوطن ولا الذود عنه، ولا العمل على تحريره وتقدمه وازدهاره، وفي هذا يقول الأستاذ البنا في رسالة «إلى الشباب»: «يخطئ من يظن أن الإخوان المسلمين يتبرمون بالوطن والوطنية، فالمسلمون أشد الناس إخلاصا لأوطانهم وتفانيا في خدمة هذه الأوطان، واحتراما لكل من يعمل لها مخلصا، وها قد علمت إلى أي حد يذهبون في وطنيتهم وإلى أي عزة يبغون بأمتهم، ولكن الفارق بين المسلمين وبين غيرهم من دعاة الوطنية المجردة أن أساس وطنية المسلمين العقيدة الإسلامية، فهم يعملون لوطن مثل مصر ويجاهدون في سبيله ويفنون في هذا الجهاد لأن مصر في أرض الإسلام وزعيمة أممه، كما أنهم لا يقفون بهذا الشعور عند حدودها، بل يشركون معها فيه كل أرض إسلامية وكل وطن إسلامي، على حين يقف كل وطني مجرد عند حدود أمته، ولا يشعر بفريضة العمل للوطن إلا عن طريق التقليد أو الظهور أو المباهاة أو المنافع، لا عن طريق الفريضة المنزلة من الله على عباده، وحسبك من وطنية الإخوان المسلمين أنهم يعتقدون عقيدة جازمة لازمة أن التفريط في أي شبر أرض يقطنه مسلم جريمة لا تغتفر، حتى يعيدوه أو يهلكوا دون إعادته، ولا نجاة لهم من الله إلا بهذا». اهـ[46].

(46) من رسالة «إلى الشباب» (ص104، 105) من مجموع رسائل الإمام الشهيد. ط. دار الدعوة بالإسكندرية.

وفـي رسـالة أخـرى - دعوتنـا - يفصـل الإمـام البنـا القـول فـي الوطنيـة تفصيلا، فقد كان الرجل حريصـا علـى تحديد المفـاهيم الغامضـة، أو المحتملـة لاخـتلاف الأفهـام، وعلـى تفصـيل المعـاني والمصـطلحات المجملـة، وضـبط الكلمات الهلامية التي يفسرها كل فريق بما يمليـه عليـه هـواه، أو تبعيتـه لفكـرة معينة.

بـين فـي هذه الرسـالة الموقف مـن الـدعوات المختلفـة التـي طغـت فـي هـذا العصر ففرقت القلوب وبلبلت الأفكار. ومنها: الوطنية.

قال رحمه الله : «افتتن النـاس بـدعوة الوطنيـة تـارة، والقوميـة تـارة أخـرى، وبخاصة في الشرق، حيث تشعر الشعوب الشرقية بإساءة الغرب إليها، إسـاءة نالت من عزتهـا وكرامتهـا واسـتقلالها، وأخـذت مـن مالهـا ومـن دمهـا، وحيـث تتألم هذه الشعوب من هذا النير الغربي الذي فرض عليها فرضـا، فهـي تحـاول الخلاص منه بكل ما في وسعها من قوة ومنعة وجهـاد وجـلاد، فانطلقـت ألسـن الزعماء، وسالت أنهار الصـحف، وكتـب الكـاتبون، وخطـب الخطبـاء، وهتـف الهاتفون باسم الوطنية وجلال القومية.

حسن ذلك وجميل، ولكن غير الحسن وغير الجميل أنك حين تحـاول إفهـام الشعوب الشرقية - وهي مسلمة - أن ذلـك فـي الإسـلام بـأوفى وأزكـى وأسـمى وأنبل مما هو في أفواه الغربيين، وكتابات الأوروبيين، أبوا ذلك عليـك، ولجـوا في تقليدهم يعمهون، وزعموا لك أن الإسلام في ناحية، وهذه الفكرة فـي ناحيـة أخـرى، وظـن بعضـهم أن ذلـك ممـا يفـرق وحـدة الأمـة، ويضـعف رابطـة الشباب.

هذا الوهم الخاطئ كان خطرا على الشعوب الشرقية من كل الوجهات، وبهذا الوهم أحببت أن أعرض هنا إلى موقف الإخوان المسلمين ودعوتهم من فكرة الوطنية، ذلك الموقف الذي ارتضوه لأنفسهم، والذي يريدون ويحاولون أن يرضاه الناس معهم.

إن كان دعاة الوطنية يريدون بها حب هذه الأرض وألفتها والحنين إليها والانعطاف نحوها، فذلك أمر مركوز في طر النفوس من جهة، مأمور به في الإسلام من جهة أخرى، وإن بلالا الذي ضحى بكل شيء في سبيل عقيدته ودينه، هو بلال الذي كان يهتف في دار الهجرة بالحنين إلى مكة، في أبيات تسيل رقة وتقطر حلاوة[47]:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بواد وحولي إذخر وجليل؟!

وهل أردن يوما مياه مجنة وهل يبدون لي شامة وطفيل؟!

ولقد سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم وصف مكة من «أصيل» فجرى دمعه حنينا إليها وقال: «**يا أصيل، دع القلوب تقر**».

وإن كانوا يريدون أن من الواجب العمل بكل جهد في تحرير البلد من الغاصبين وتوفير استقلال له، وغرس مبادئ العزة والحرية في نفوس أبنائه، فنحن معهم في ذلك أيضا، وقد شدد الإسلام في ذلك أبلغ التشديد فقال تتت: {**وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ**} [المنافقون: 8]، ويقول: {**وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا**} [النساء: 141].

وإن كانوا يريدون بالوطنية تقوية الرابطة بين أفراد القطر الواحد

---

(47) الحديث رواه البخاري ومسلم عن عائشة، والشعر عند البخاري فقط.

وإرشادهم إلى طريق استخدام هذه التقوية في مصالحهم، فذلك نوافقهم فيه أيضا، ويراه الإسلام فريضة لازمة فيقول نبيه صلى الله عليه وسلم: «**وكونوا عباد الله إخوانا**»[48]، ويقول القرآن الكريم: {**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ**} [آل عمران: 118].

وإن كانوا يريدون بالوطنية فتح البلاد، وسيادة الأرض، فقد فرض ذلك الإسلام ووجه الفاتحين إلى افضل استعمار وأبرك فتح، فذلك قوله تعالى: {**وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ**} [البقرة: 193].

وإن كانوا يريدون بالوطنية تقسيم الأمة إلى طوائف تتناحر وتتضاغن وتتراشق بالسباب وتترامى بالتهم ويكيد بعضها لبعض، وتتشيع لمناهج وضعية أملتها الأهواء، وشكلتها الغايات والأغراض، وفسرتها الأفهام وفق المصالح الشخصية، والعدو يستغل كل ذلك لمصلحته ويزيد وقود هذه النار اشتعالا يفرقهم في الحق ويجمعهم في الباطل، ويحرم عليهم اتصال بعضهم ببعض وتعاون بعضهم مع بعض، ويحل لهم هذه الصلة به والالتفاف حوله، فلا يقصدون إلا داره ولا يجتمعون إلا زواره، فتلك وطنية زائفة لا خير فيها لدعاتها ولا للناس، فها أنت ذا قد رأيت أننا مع دعاة الوطنية، بل مع غلاتهم في كل معانيها الصالحة التي تعود بالخير على البلاد والعباد، وقد رأيت مع هذا ان تلك الدعوى الوطنية الطويلة العريضة لم تخرج عن أنها جزء من تعاليم الإسلام».

---

(48) رواه أحمد ومسلم عن أبي هريرة، كما في «صحيح الجامع الصغير».

حدود وطنيتنا:

«أما وجه الخلاف بيننا وبينهم فهو أننا نعتبر حدود الوطنية بالعقيدة، وهم يعتبرونها بالتخوم الأرضية والحدود الجغرافية، فكل بقعة فيها مسلم يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وطن عندنا له حرمته وقداسته، وحبه والإخلاص له، والجهاد في سبيل خيره، وكل المسلمين في هذه الأقطار الجغرافية أهلنا وإخواننا، نهتم لهم ونشعر بشعورهم ونحس بإحساسهم، ودعاة الوطنية فقط ليسوا كذلك، فلا يعنيهم إلا أمر تلك البقعة المحدودة الضيقة من رقعة الأرض، ويظهر ذلك الفارق العملي فيما إذا أرادت أمة من الأمم أن تقوي نفسها على حساب غيرها، فنحن لا نرضى ذلك على حساب أي قطر إسلامي، إنما نطلب القوة لنا جميعا، ودعاة الوطنية المجردة لا يرون في ذلك بأسا، ومن هنا تتفكك الروابط وتضعف القوى ويضرب العدو بعضهم ببعض».

غاية وطنيتنا:

«هذه هي واحدة، والثانية: أن الوطنيين فقط جل ما يقصدون إليه: تخليص بلادهم، فإذا ما عملوا لتقويتها بعد ذلك اهتموا بالنواحي المادية كما تفعل أوروبا الآن، أما نحن فنعتقد أن المسلم في عنقه أمانة عليه أن يبذل نفسه ودمه وماله في سبيل أدائها تلك هي هداية البشر بنور الإسلام، ورفع علمه خفاقا على كل ربوع الأرض، لا يبغي بذلك مالا ولا جاها ولا سلطانا على أحد ولا استعبادا لشعب، وإنما يبغي وجه الله وحده، وإسعاد العالم بدينه وإعلاء كلمته، وذلك ما حدا بالسلف الصالحين - رضوان الله عليهم - إلى هذه الفتوح القدسية التي أدهشت الدنيا، وأربت على كل ما عرف التاريخ من

سرعة وعدل ونبل وفضل.

الوحدة واختلاف الدين:

وأحب أن أنبهك إلى سقوط ذلك الزعم القائل أن الجري على هذا المبدأ يمزق وحدة الأمة التي تتألف من عناصر دينية مختلفة، فإن الإسلام وهو دين الوحدة والمساواة كفل هذه الروابط بين الجميع ما داموا متعاونين على الخير: {**لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ**} [الممتحنة: 8].

فمن أين يأتي التفريق إذن[49]؟

أفرأيت بعد هذا كيف أننا متفقون مع أشد الناس غلوا في الوطنية في حب الخير للبلاد، والجهاد في سبيل تخليصها وخيرها وارتقائها، ونعمل ونؤيد كل من يسعى في ذلك بإخلاص، بل أحب ان نتعلم أن مهمتهم إن كانت تنتهي بتحرير الوطن واسترداد مجده، فإن ذلك عند الإخوان المسلمين بعض الطريق فقط، أو مرحلة منه واحدة، ويبقى بعد ذلك أن يعملوا لترفع راية الوطن الإسلامي على كل بقاع الأرض، ويخفق لواء «المصحف» في كل مكان»[50].

الوطنية المصرية عند الإمام:

ويعود الأستاذ إلى فكرة «الوطنية» أو «المصرية» بمعنى الانتماء إلى

---

(49) انظر: كتابنا «غير المسلمين في المجتمع الإسلامي»، وفصل «الحل الإسلامي والأقليات الدينية» من كتابنا «بينات الحل الإسلامي وشبهات العلمانيين والمتغربين».

(50) من رسالة «دعوتنا» (ص24 - 27) من مجموع الرسائل، ط. دار الدعوة - الإسكندرية.

مصر وحبها، والعمل على تحريرها والنهوض بها، فيقول: «فالمصرية أو القومية[51] لها في دعوتنا مكانها ومنزلتها وحقها في الكفاح والنضال.

إننا مصريون بهذه البقعة الكريمة من الأرض التي نبتنا فيها ونشأنا عليها، ومصر بلد مؤمن تلقى الإسلام تلقيا كريما، وذاد عنه، ورد عنه العدوان في كثير من أدوار التاريخ وأخلص في اعتناقه، وطوى عليه أعطف المشاعر وأنبل العواطف، وهو لا يصلح إلا بالإسلام، ولا يداوى إلا بعقاقيره، ولا يطب له إلا بعلاجه، وقد انتهت إليه بحكم الظروف الكثيرة حضانة الفكرة الإسلامية. والقيام عليها، فكيف لا نعمل لمصر ولخير مصر؟ وكيف لا ندفع عن مصر بكل ما نستطيع؟ وكيف يقال: إن الإيمان بالمصرية لا يتفق مع ما يجب أن يدعو إليه رجل ينادي بالإسلام ويهتف بالإسلام؟! إننا نعتز بأننا مخلصون لهذا الوطن الحبيب، عاملون له، مجاهدون في سبيل خيره، وسنظل كذلك ما حيينا معتقدين أن هذه هي الحلقة الأولى في سلسلة النهضة المنشودة، وأنها جزء من الوطن العربي العام، وأننا حين نعمل لمصر نعمل للعروبة والشرق والإسلام.

وليس يضيرنا في هذا كله أن نعنى بتاريخ مصر القديم، وبما سبق إليه قدماء المصريين الناس من المعارف والعلوم، فنحن نرحب بمصر القديمة كتاريخ فيه مجد وفيه علم ومعرفة، ونحارب هذه النظرية بكل قوانا كمنهاج علمي، يراد صبغ مصر به ودعوتها إليه، بعد أن هداها الله بتعاليم الإسلام،

---

(51) يلاحظ أن الأستاذ جعل المصرية مرادفة للقومية، فلم تكن هذه الألفاظ قد تحدد معناه وتمايزها تماما، وإن كان في رسالة «دعوتنا» قد فرق بينهما بوضوح. وسنذكر ذلك بعد.

وشرح له صدرها، وأنار به بصيرتها، وزادها به شرفا ومجدا فوق مجدها، وخلصها بذلك مما لاحق هذا التاريخ من أوضار الوثنية، وأدران الشرك، وعادات الجاهلية»[52].

المؤتمرات الوطنية العامة:

ولم يكتف حسن البنا بما ذكره في رسائله عن الوطن والوطنية، فكثيرا ما شرح ذلك في لقاءاته الخاصة، ومؤتمراته العامة.

وأشهد لقد حضرت أحد المؤتمرات العامة التي كان يعقدها الإخوان لشرح المطالب الوطنية في عواصم الأقاليم المصرية، ويتحدث فيها الإمام الشهيد وصحبه، وذلك بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية في سنة 1945م، وهبوب الشعوب للمطالبة بحريتها واستقلالها.

كان ذلك المؤتمر في مدينة طنطا التي أدرس فيها، وقد تحدث الأستاذ عن الوطن، فقسمه إلى ثلاثة أقسام، أو إلى ثلاث مراتب:

الوطن الصغير، والوطن الكبير، والوطن الأكبر.

فأما الوطن الصغير: فهو «وادي النيل» شماله وجنوبه، شماله: مصر، وجنوبه: السودان، وكان الأستاذ البنا يقول: «مصر هي السودان الشمالي، والسودان هو مصر الجنوبية، نحن من السودان، والسودان منا»، وقد تحددت المطالب هنا في أمرين: جلاء الإنجليز، ووحدة الوادي.

وأما الوطن الكبير: فهو «الوطن العربي»، ولأول مرة أسمع تحديده من الشيخ رحمه الله: من المحيط الأطلسي إلى الخليج «الفارسي» - اتباعا

(52) من رسالة «إلى الشباب» (ص129) من مجموع الرسائل.

للمصطلح السائد في ذلك الوقت ـ ولم تكن شاعت كلمة «الخليج العربي» هو فارسي من جهة، وعربي من جهة أخرى، ولهذا اقترح بعضهم تسميته «الخليج الإسلامي».

وهنا تحدث عن قضية فلسطين، وأطماع الصهيونية فيها، ولفت الأنظار إلى خطورتها، وكان دائم التنبيه على أهمية هذه القضية وما تحمله اليهودية من خطر على العرب والمسلمين في الحاضر والمستقبل.

وأما الوطن الأكبر: فهو «الوطن الإسلامي» من المحيط إلى المحيط، أي: من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهادي، من الدار البيضاء إلى جاكرتا.

بل كان البنا رضي الله عنه يعتبر «الأندلس» جزءا من الوطن الإسلامي، اغتصب منه، بعد ثمانية قرون من الحضارة.

ومما لا أنساه في هذا المؤتمر: أن أحد إخواننا الأقباط تكلم في هذا المؤتمر عن قضية «قناة السويس» وحق مصر فيها، وكان متخصصا في هذا المجال، وكان الإمام يصطحبه معه لشهود هذه المؤتمرات في الأقاليم، رمزا للوحدة الوطنية، ودليلا على التسامح الإسلامي.

ومما أذكره عن هذا المؤتمر ما قاله الأستاذ عن الوطن الخاص أو الصغير «وادي النيل»، وعن «الاحتلال الإنجليزي» وكيف نقاومه؟ وما وسيلتنا في ذلك؟

وذكر هنا عدة وسائل:

1 ـ المفاوضة: دون أي تفريط في أي حق من حقوق الوطن شماله وجنوبه.

2 - المقاطعة: إذا لم تجد المفاوضة لما هو معروف من تعنت الإنجليز وصلفهم.

وهنا وضح الأستاذ أننا نحن أبناء مصر والسودان قادرون على أن نعيش على الكفاف، ونستغني عن بضائع الإنجليز، وذكر هنا المثل العامي الذي يقول: «اللي عنده العيش ويبله عنده الفرح كله»، وقال: «سنخرج فتاوى ابن حزم من أن بدن العدو الكافر وعرقه ولعابه نجس ... إلخ».

3 - الجهاد: قال: «فإن لم تجد المقاطعة فليس أمامنا إلا الجهاد، وسيقوم هذا الشعب عن بكرة أبيه للدفاع عن حريته وكرامته، منتظرا إحدى الحسنيين: النصر أو الجنة».

وهنا قال: «فإن من الأدعية التي حفظتها في الصغر وكنت أرددها: اللهم ارزقني الحياة الحسنة، والموتة الحسنة، وما معنى الموتة الحسنة؟ هل هي أن يموت الإنسان على فراشه كما يموت العير[53]؟ إني لا أجد لها معنى إلا أن يفصل هذا عن هذا في سبيل الله!» وأشار إلى رأسه وجسده رضي الله عنه، وهنا ضج المؤتمر كله بالتهليل والتكبير.

هذا التوجه وهذه التربية قد آتت أكلها في عقول الإخوان ونفوسهم، فكانوا هم السباقين إلى الدفاع عن الوطن، معتبرين ذلك جزءا من الإسلام، وتعبيرا عن الإيمان، يستوي في ذلك الوطن الصغير والوطن الكبير.

ففي فلسطين كانت لهم مواقفهم وبطولاتهم وشهداؤهم الذين رووا ثرى الأرض المقدسة بدمائهم، وسجل بعض ذلك الأخ الفاضل الأستاذ كامل

---

(53) العير: أي: الحمار.

الشريف في كتابه «الإخوان المسلمون في حرب فلسطين»، وكان جزاؤهم عن ذلك «حل الجماعة» في 8 ديسمبر سنة 1948م.

بل إن ما أصاب الإخوان من محن قاسية وضربات وحشية متتابعة كان له ارتباط بقضية فلسطين، حل الإخوان سنة 1948م كان بناء على طلب سفراء أمريكا وبريطانيا وفرنسا، بعد اجتماعهم في معسكر «فايد»، واستجابة النقراشي وحكومته لهم، كما أثبتت ذلك الوثائق المؤكدة.

ومحنة 1965م كان تمهيدا لنكبة 1967م.

وموقف الإخوان في معارك قناة السويس والتل الكبير مشهور غير منكور، وشهداؤهم - وخصوصا من طلاب الجامعة - معروفون «عمر شاهين، والمنيسي، وغانم».

وقد شاركنا نحن أبناء الأزهر في هذه المسيرة، وأقمنا معسكرنا بجامعة الأزهر بالدراسة، وسافرت كتيبتنا إلى «الشرقية» وودعناها في احتفال مهيب بقاعة الإمام محمد عبده.

وقد سجل بعض ذلك الاستاذ كامل الشريف أيضا في كتابه عن «المقاومة السرية في قناة السويس»، والأستاذ حسن دوح في كتابه عن «كفاح الشباب الجامعي في قناة السويس».

أما ما أداه الإخوان من خدمات لوطنهم في المجالات الأخرى فشيء يجل عن الحصر، وكل مدينة أو قرية في مصر تشهد بآثارهم التربوية والثقافية والاجتماعية، ومن الكتب الموثقة في الجانب الاجتماعي كتاب الأستاذ محمد شوقي زكي «الإخوان والمجتمع المصري».

وهذا الذي حدث في مصر حدث مثله أو ما يقاربه في الأقطار العربية الأخرى التي انتشرت فيها دعوة الإخوان المسلمين.

وبهذا ثبت بالقول والعمل وبالنظر والتطبيق: أن الإخوان المسلمين هم أصدق الناس في حب أوطانهم، والاستماتة في خدمتها، والذود عن حياضها بالمهج والأرواح؛ لأنهم يفعلون ذلك بدافع الإيمان، وموجب حكم الإسلام.

الأمة في الإسلام:

ويبقى في الجانب السياسي جزء ثالث أشار إليه صاحب الأصول العشرين - بجانب الدولة والوطن - هو ما يتعلق بالأمة، فالإسلام دولة ووطن، أو حكومة وأمة.

فكما يعنى الإسلام بالسلطة الحاكمة يعنى كذلك - بل قبل ذلك - بالأمة التي تختار السلطة، وتنبثق عنها الدولة.

ولد الإسلام في جزيرة العرب، وهي قائمة على القبلية والعصبية لها، فالقبيلة هي أساس الولاء، ومصدر الاعتزاز والانتماء، فلا مكان لابن القبيلة إلا بها، بل لا وجود له إلا بها، فهي النسب والحسب، وهي السلطة والقوة، وهي الاقتصاد والسياسة، يرضى برضاها، ويغضب بغضبها، أو بغضب شيخها، ويتعصب لابن القبيلة محقا كان أو مبطلا، شعار كل واحد فيها: «انصر أخاك - أي: ابن القبيلة - ظالما أو مظلوما»، بالمعنى الظاهري للعبارة، وكل قبيلة تحاول ان تستعلي على القبيلة الأخرى، وتنقص من أطرافها، ولهذا كثرت الغارات من بعضهم على بعض، حتى قال قائلهم:

وأحيانا على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا!

فلما جاء الإسلام نقلهم نقلة كبيرة في عالم الفكر، وعالم الشعور، وعالم الواقع، نقلهم من سجن القبلية الضيقة إلى باحة الأمة الواسعة، وحذر أشد التحذير من الدعوة إلى العصبية بكل ألوانها، وخصوصا العصبية للقبيلة.

وفي الحديث: «**ليس منا من دعا إلى عصبية، أو قاتل على عصبية، أو مات على عصبية**»(54).

«**من قاتل تحت راية عمية يغضب لعصبة، او يدعو إلى عصبة، أو ينصر عصبة، فقتل فقتلة جاهلية**»(55).

وسئل صلى الله عليه وسلم عن العصبية، فقال: «**أن تعين قومك على الظلم**»(56)، ففسرها بأثرها في واقع المجتمع القبلي، فصاحب العصبية مع جماعة وإن جاروا وظلموا، وضد خصومهم وإن بروا وأقسطوا، أو أوذوا وظلموا، على خلاف ما جاء به الإسلام من القيام بالقسط: {**وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ**} [النساء: 135]، {**وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْ**} [المائدة: 8].

وفي لحظة من لحظات الضعف البشري أطلت النزعة القبلية عند بعض الصحابة، فتنادوا بأسماء قبائلهم: يا بني فلان، ويا بني علان، فغضب النبي صلى الله عليه وسلم أشد الغضب، وقال: «**أبدعوى الجاهلية وأن بين**

---

(54) رواه أبو داود في «الأدب» (1521) عن جبير بن مطعم، والحديث فيه ضعف ولكن يشهد له حديث مسلم الآتي بعده.

(55) رواه مسلم في «الإمارة» عن أبي هريرة (1848)، وعمية: الأمر لا يستبين وجهه.

(56) رواه أبو داود في «الأدب» (5119) عن واثلة بن الأسقع، وابن ماجه في «الفتن» (3949).

أظهركم؟!»[57]، وقال عن دعوة العصبية كلمته المعبرة: **«دعوها فإنها منتنة»**[58].

لقد أراد الإسلام أن يبني أمة على أساس العقيدة والفكرة، وليس على أي أساس مادي أو أرضي مما يبني عليه البشر أممهم، من عنصر أو لون أو لغة أو أرض، مما ليس للإنسان فيه إرادة واختيار، بل هو قدر مفروض عليه، فلم يختر الإنسان جنسه ولا لونه ولا لغته ولا أرضه التي ولد فيها، إنما ورث هذا كله دون أن يكون له رأي فيه.

أما العقيدة: فالأصل فيها أنها من اختيار الإنسان، وإيمان المقلد مشكوك في قبوله، بل مرفوض عند المحققين من علماء المسلمين.

أراد الإسلام للمسلمين أن يكونوا أمة تنتسب إلى الحق لا إلى زيد أو عمرو من البشر، فهي لا تقوم على رابطة عرقية ولا لونية ولا إقليمية ولا طبقية، بل هي أمة عقيدة ورسالة قبل كل شيء.

هي أمة الإسلام، أو أمة المسلمين كما قال تعالى: {**هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ**} [الحج: 78]، وهي أمة الإيمان أو أمة المؤمنين، ولهذا تنادي دائما بـ{**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ**}.

أوصاف الأمة الأساسية في القرآن:

أبرز ما يميز هذه الأمة عن غيرها من الأمم أوصاف أربعة ذكرها

(57) ذكره ابن كثير في «تفسيره» عن ابن إسحاق (389/1).

(58) رواه البخاري.

القرآن:

الربانية:

الأول: الربانية - ربانية المصدر، وربانية الوجهة، فهي أمة أنشأها وحي الله تعالى، وتعهدتها تعاليمه وأحكامه حتى اكتمل لها دينها، وتمت به نعمة الله عليها كما قال تعالى: {**ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا**} [المائدة: 3].

فالله تعالى هو صانع هذه الأمة، ولهذا نجد القرآن الكريم يقول: {**وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا**} [البقرة: 143]، فهذا التعبير {**جَعَلۡنَٰكُمۡ**} يفيد أن الله هو جاعل هذه الأمة ومتخذها وصانعها.

ومثل ذلك قوله تعالى: {**كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ**} [آل عمران: 110]، فتعبير {**أُخۡرِجَتۡ**} يدل على أن هناك مخرجا أخرج هذه الأمة، فهي لم تظهر اعتباطا، ولم تكن نباتا بريا ينبت وحده دون أن يزرعه زارع، بل هو نبات مقصود متعهد بالعناية والرعاية، والذي أخرج هذه الأمة وزرعها وهيأها لرسالتها هو الله - جل شأنه.

فهي أمة مصدرها رباني، ووجهتها ربانية كذلك، لأنها تعيش لله، ولعبادة الله، ولتحقيق منهج الله في أرض الله، فهي من الله وإلى الله[59]، كما قال تعالى لرسوله: {**قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ 162 لَا شَرِيكَ لَهُۥ**} [الأنعام: 162، 163].

---

(59) انظر: خصيصة «الربانية» في كتابنا «الخصائص العامة في الإسلام» ط. مكتبة وهبة ومؤسسة الرسالة.

الوسطية:

والثاني: الوسطية التي تؤهل الأمة للشهادة على الناس، وتبوئها مكان الأستاذية للبشرية، وفيها جاءت الآية الكريمة: {**وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا**} [البقرة: 143].

وهي وسطية شاملة جامعة: وسطية في الاعتقاد والتصور، ووسطية في الشعائر والتعبد، ووسطية في الأخلاق والسلوك، ووسطية في النظم والتشريع، ووسطية في الأفكار والمشاعر.

وسطية بين الروحية والمادية، بين المثالثة والواقعية، بين الفردية والجماعية[60].

إنها الأمة التي تمثل «الصراط المستقيم» بين السبل المتعرجة والملتوية، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، لا صراط المغضوب عليهم ولا الضالين.

الدعوة:

والوصف الثالث: الدعوة، فهي أمة دعوة ورسالة، ليست أمة منكفئة على نفسها، تحتكر الحق والخير والهداية لذاتها، ولا تعمل على نشرها في الناس.

بل الدعوة فريضة عليها، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع الإيمان بالله أساس تفضيلها على كل الأمم، كما قال تعالى: {**كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ**} [آل عمران:

---

(60) انظر: خصيصة «الوسطية» من كتابنا المذكور.

110].

فهي لم ترجح سائر الأمم في ميزان الله لسبب مادي أو عنصري، كيف وهي تتكون من عناصر شتى، من كل من يدخل في دين الله من أجناس البشر عربا أو عجما؟

إنما رجحت في ميزان الحق لأنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله.

وقبل ذلك بآيات قال الله تعالى: {**وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ**} [آل عمران: 104].

ومعناها على أحد التفسيرين: اجعلوا من أنفسكم أمة الدعوة والأمر والنهي، فبهذا تستحقون أن يقصر الفلاح عليكم، ومن هنا تجريدية لا تبعيضية.

وعلى التفسير الآخر: هيئوا منكم طائفة متماسكة قادرة على الدعوة والأمر والنهي، ولتسقط فرض الكفاية عنكم، وتكونوا أنتم عونا لها.

إن رسالة الإسلام رسالة عالمية، رسالة لكل الأجناس، ولكل الألوان، ولكل الأقاليم، ولكل الشعوب، ولكل اللغات، ولكل الطبقات، كما قال تعالى: {**وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ**} [الأنبياء: 107].

{**تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا**} [الفرقان: 1].

{**قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا**} [الأعراف: 158].

وعلى الأمة المسلمة أن تدعو الناس جميعا إلى الإسلام بألسنتهم حتى نبين

لهم، ونقيم الحجة عليهم، وأن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، حتى لا تلعن كما لعن الذين من قبلها حين فرطوا في هذا الواجب: {**لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ 78 كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ**} [المائدة: 78، 79].

الوحدة:

والوصف الرابع: الوحدة، فالأمة التي يريدها الإسلام أمة واحدة، وإن تكونت من عروق وألوان وطبقات، فقد صهرها الإسلام جميعا في بوتقته، وأذاب الفوارق بينها، وربطها بالعروة الوثقى لا انفصام لها.

يقول تعالى: {**إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ**} [الأنبياء: 92].

ويقول سبحانه: {**وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ**} [المؤمنون: 52].

وكيف لا تكون هذه الأمة واحدة وقد وحد الله عقيدتها وشريعتها، وحد غايتها، ووحد منهاجها، كما قال تعالى: {**وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ**} [الأنعام: 153].

أمة ربها واحد هو الله، ونبيها واحد هو محمد صلى الله عليه وسلم، وكتابها واحد هو القرآن، وقبلتها واحدة هي الكعبة البيت الحرام، وشريعتها واحدة هي شريعة الإسلام، ووطنها واحد هو «دار الإسلام» على اتساعها، وقيادتها واحدة تتمثل في «خليفة المسلمين» وأمير المؤمنين، الذي يجسم الوحدة السياسية للأمة.

ولهذا رفض الإسلام أن يكون للمسلمين خليفتان في وقت واحد، حرصا على وحدة الأمة، ومنعا لتفرق كلمتها، وشتات أمرها.

ولهذا لا يجوز أن نقول في تعبيرنا: الأمم الإسلامية، بل الأمة الإسلامية، فهي أمة واحدة كما أمر الله، وليست أمما متفرقة، كما أراد الاستعمار.

يقول الله تعالى: {**وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ**} [آل عمران: 103].

ويقول: {**وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ**} [آل عمران: 105].

ولقد نبه القرآن على دسائس بعض أهل الكتاب الذين يسعون جهدهم لتمزيق شمل المسلمين، وإثارة النعرات العصبية بينهم، فقال تعالى محذرا: {**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ**} [آل عمران: 100].

وسبب نزول الآية الكريمة وما بعدها يدل على أن المقصود: يردوكم بعد وحدتكم متفرقين، وبعد أخوتكم متعادين.

إن وحدة الأمة توجب عليها أن تجعل أخوتها الإسلامية فوق كل العصبيات، فقد جعلها الله تعالى معبرة عن الإيمان ومجسدة له: {**إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ**} [الحجرات: 10].

وقال رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم: «**المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يسلمه**»(61)، أي: لا يخذله عند الشدة أو عند الاعتداء عليه، بل ينصره ويسانده، وهذا هو مقتضى الأخوة، وهو ما يؤكده الحديث الآخر: «**المسلمون تتكافأ دماؤهم، يسعى بذمتهم أدناهم، ويجير عليهم أقصاهم،**

---

(61) متفق عليه عن ابن عمر، كما في «صحيح الجامع الصغير».

وهم يد على من سواهم»[62].

ويحذر الإسلام أبلغ التحذير من تعادي أبناء الأمة الواحدة إلى حد أن يحارب بعضها بعضا، كما كانت تفعل قبائل الجاهلية، يقول صلى الله عليه وسلم: «**لا ترجعوا بعدي كفارًا، يضرب بعضكم رقاب بعض**»[63]. «**سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر**»[64].

الإيمان بالأمة لا ينفي خصوصيات الأقوام:

ومن المفيد هنا أن ننبه على قضية ذات شأن، وهي: أن الإيمان بـ«الأمة» المؤسسة على عقيدة الإسلام وأخوة الإيمان والتي تضم جميع المسلمين في رحابها حيث كانوا - لا ينبغي أن هناك خصوصيات معينة لكل قوم، يعتزون بها، ويحافظون عليها، ولا يفرطون فيها، ولا مانع من ذلك إذا لم تتحول إلى عصبية عرقية تقاوم أخوة الإسلام، أو إلى نزعة أنانية انفصالية تهدد وحدة دولة الإسلام.

ولقد ترك الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه من بعده القبائل تقاتل تحت راياتها، تحت القيادة الإسلامية العامة؛ ليكون ذلك مصدرا إضافيا لحماسهم وإقدامهم، حتى لا يجلبوا العار على أقوامهم وعشائرهم.

إن حب الرجل لقومه وعشيرته ورغبته في جلب الخير لهم، ودفع الشر عنهم، نزعة فطرية لا غبار عليها، ولا خطر فيها، كما لا خطر في حبه

---

(62) رواه أبو داود في «الجهاد» (2751)، وابن ماجه (2852) عن عبد الله بن عمرو.

(63) متفق عليه عن جرير بن عبد الله كما في «اللؤلؤ والمرجان» (44)، وعن ابن عمر (45).

(64) متفق عليه عن ابن مسعود كما في «اللؤلؤ والمرجان» (43).

لأسرته، واهتمامه بها، ولا غرو أن أمر الرسول بتعلم الأنساب لما وراءها من تواصل في الأرحام وإن تباعدت: «**تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم**»(65).

وفي الحديث: «**خيركم المدافع عن عشيرته ما لم يأثم**»(66).

إن الخطر إنما يتمثل فيما إذا وقف قومه موقفا معاديا للإسلام، وحادوا الله ورسوله، هنا تحرم الموادة والموالاة، ولو كانت لأقرب الناس للإنسان، كأمه وأبيه وزوجه وأخيه.

يقول تعالى: {**لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ**} [المجادلة: 22].

ويقول: {**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ 23 قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ**} [التوبة: 23، 24].

لا بأس أن يحب الرجل أسرته، ويحب قومه وعشيرته، ولكن إذا تعارض ذلك مع حب الله ورسوله فإن حب الله ورسوله أغلى من كل شيء، هنا يتغنى المسلم بقول القائل:

---

(65) رواه الترمذي في «البر والصلة» عن أبي هريرة، وقال: غريب من هذا الوجه (1980)، وأحمد (374/2)، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي (161/4).

(66) رواه أبو داود من حديث سراقة بن مالك في «الأدب» (5120)، وفيه أيوب بن سويد، ضعيف.

أبـي الإسـلام لا أب لـي سـواه إذا افتخـروا بقـيس أو تمـيم!

هنا يقول المسلم ما قاله سلمان رضي الله عنه حين سئل: ابن من أنت؟ فقال: أنا ابن الإسلام!

القومية عند حسن البنا:

ولقد كان هذا المعنى واضحا عند الإمام البنا، فلم يرفض فكرة «القومية» رفضا كليا، ولم يقبلها قبولا مطلقا، بل فصل فيها كما فصل في «الوطنية»، قال رضي الله عنه:

«إن كان الذين يعتزون بمبدأ «القومية» يقصدون به أن الأخلاف يجب أن ينهجوا نهج الأسلاف في مراقي المجد والعظمة ومدارك النبوغ والهمة، وأن تكون لهم بهم في ذلك قدوة حسنة، وأن عظمة الأب مما يعتز به الابن ويجد لها الحماس والأريحية بدافع الصلة والوراثة، فهو مقصد حسن جميل نشجعه ونأخذ به، وهل عدتنا في إيقاظ همة الحاضرين إلا أن نحدوهم بأمجاد الماضين؟

ولعل الإشارة إلى هذا في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«الناس معاد، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»**[67]، فها أنت ذا ترى أن الإسلام لا يمنع من القومية بهذا المعنى الفاضل النبيل.

وإذا قصد بالقومية أن عشيرة الرجل وأمته أولى الناس بخيره وبره وأحقهم بإحسانه وجهاده فهو حق كذلك، ومن ذا الذي لا يرى أولى الناس بجهوده قومه الذين نشأ فيهم ونما بينهم؟

---

(67) متفق عليه عن أبي هريرة كما في «صحيح الجامع الصغير».

لعمري لرهط المرء خير بقية عليه وإن عالوا به كل مركب

وإذا قصد بالقومية أننا جميعا مبتلون مطالبون بالعمل والجهاد، فعلى كل جماعة أن تحقق الغاية من جهتها، حتى تلتقي - إن شاء الله - في ساحة النصر، فنعم التقسيم هذا، ومن لنا بمن يحدو الأمم الشرقية كتائب كل في ميدانها حتى نلتقي جميعا في بحبوحة الحرية والخلاص؟

كل هذا وأشباهه في معنى القومية جميل معجب لا يأباه الإسلام، وهو مقياسنا، بل ينفسح صدرنا له ونحض عليه.

أما أن يراد بالقومية إحياء عادات جاهلية درست، وإقامة ذكريات بائدة خلت وتعفية حضارة نافعة استقرت، والتحلل من عقدة الإسلام، ورباطه بدعوى القومية والاعتزاز بالجنس، كما فعلت بعض الدول في المغالات بتحطيم مظاهر الإسلام والعروبة، حتى الأسماء وحروف الكتابة وألفاظ اللغة، وإحياء ما اندرس من عادات جاهلية، فذلك في القومية معنى ذميم وخيم العاقبة سيء المغبة، يؤدي بالشرق إلى خسارة فادحة يضيع معها تراثه وتنحط بها منزلته، ويفقد أخص مميزاته وأقدس مظاهر شرفه ونبله، ولا يضر ذلك دين الله شيئا: **{وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم}** [محمد: 38].

وأما أن يراد بالقومية الاعتزاز بالجنس إلى درجة تؤدي إلى انتقاص الأجناس الأخرى والعدوان عليها والتضحية بها في سبيل عزة أمة وبقائها، كما تنادي بذلك ألمانيا وإيطاليا مثلا، بل كما تدعي كل أمة تنادي بأنها فوق الجميع، فهذا معنى ذميم كذلك ليس من الإنسانية في شيء، ومعناه أن يتناحر الجنس البشري في سبيل وهم من الأوهام، لا حقيقة له، ولا خير فيه.

الإخوان المسلمون لا يؤمنون بالقومية بهذه المعاني، ولا بأشباهها، ولا يقولون فرعونية وعربية وفينيقية وسورية، ولا شيئا من هذه الألقاب والأسماء التي يتنابز بها الناس، ولكنهم يؤمنون بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الإنسان الكامل بل أكمل معلم علم الإنسان الخير: «**إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس لآدم وآدم من تراب، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى**»[68].

ما أروع هذا وأجمله وأعدله، الناس لآدم فهم في ذلك أكفاء، والناس يتفاضلون بالأعمال، فواجبهم التنافس في الخير، دعامتان قويمتان لو بنيت عليهما الإنسانية لارتفعت بالبشر إلى علياء السموات، الناس لآدم فهم إخوان فعليهم أن يتعاونوا وأن يسالم بعضهم بعضا، ويرحم بعضهم بعضا، ويدل بعضهم بعضا على الخير، والتفاضل بالأعمال، فعليهم أن يجتهدوا كل من ناحيته حتى ترقى الإنسانية، فهل رأيت سموا بالإنسانية أعلى من هذا السمو أو تربية أفضل من هذه التربية؟

خواص العروبة:

«ولسنا مع هذا ننكر خواص الأمم ومميزاتها الخلقية، فنحن نعلم أن لكل شعب مميزاته وقسطه من الفضيلة والخلق، ونعلم أن الشعوب في هذا تتفاوت وتتفاضل، ونعتقد أن العروبة لها من ذلك النصيب الأوفى والأوفر، ولكن ليس معنى هذا أن تتخذ الشعوب هذه المزايا ذريعة إلى العدوان، بل عليها أن

(68) رواه أبو داود في «الأدب» (5116)، والترمذي في «المناقب» وحسنه (3950)، وأحمد والبيهقي عن أبي هريرة، انظر: كتابنا «المنتقى من الترغيب والترهيب» ط. حديث (1792).

تتخذ ذلك وسيلة إلى تحقيق المهمة السابقة التي كلفها كل شعب، تلك هي النهوض بالإنسانية، ولعلك لست واجدا في التاريخ من أدرك هذا المعنى من شعوب الأرض كما أدركته تلك الكتيبة العربية من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم». اهـ.

وبهذا لم ير الإمام البنا أن يقيم تعارضا لا ضرورة له بين العروبة والإسلام.

مكانة الجهاد في دعوة الإمام البنا:

قلنا: إن من المبادئ التي حرص الإمام الشهيد رحمه الله على توضيحها وإثباتها مبدآن أساسيان، هما: الدولة والجهاد، فقد حرصت القوى المعادية على حذفهما من الإسلام، وذلك لتحكم الأمة بما تريد، وكما تريد، ما دام الإسلام مجرد دين لا دولة له، ولتحكمها كذلك بلا مقاومة، ما دام الإسلام مستأنسا بلا جهاد.

وقد تحدثنا عن فكرة «الدولة» ومكانتها في الإسلام، والآن نتحدث عن «الجهاد» الذي قامت دعوات مشبوهة بل مكشوفة القناع «كالقاديانية» وغيرها تنادي بإلغائه، وأن عصره قد انتهى، بعد زمن الصحابة، ولهذا رأينا حسن البنا يركز على هذا المبدأ في الاصل الأول من أصوله العشرين ويعلم جنود حركته في كلمات مركزة أن الإسلام «جهاد ودعوة» أو «جيش وفكرة» كما هو «عقيدة سليمة، وعبادة صحيحة سواء بسواء».

وفي الواقع أن دعوة الإخوان المسلمين التي أسسها حسن البنا قامت من أول يوم بجعل «الجهاد» شعارا لها، وطريقا لتحقيق أهدافها، ولم تقتصر

جهودها على التربية الروحية والخلقية فحسب، كما يفعل رجال التصوف - أعني المخلصين المتبعين منهم - وإن عنيت بذلك كل العناية، ولم تكتف أيضا بنشر العلم والوعي، كما فعل بعض المصلحين الإسلاميين، وإن اهتمت بذلك أبلغ الاهتمام.

فلا عجب أن كان شعار الجماعة وهتافها: «الجهاد سبيلنا، والموت في سبيل الله أسمى أمانينا».

كما أن البنا رحمه الله قال في مذكراته منذ عهد مبكر: «إنه اراد بدعوته أن تكون دعوة عامة قوامها العلم والتربية والجهاد، وكانت التربية الجهادية إحدى شعب التربية الإخوانية الأساسية»[69].

وكان من الأوصاف البارزة لرجال الدعوة أنهم «رهبان الليل، وفرسان النهار».

وكانت شارة الإخوان عبارة عن «مصحف يحيط به سيفان»، وتحته كلمة «وأعدوا» إشارة إلى الآية الكريمة من سورة الأنفال: {**وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ** ...} [الأنفال: 60]، وإيماء إلى أن الحق لا يعيش ما لم تسنده القوة.

ومن الكلمات التي يحفظها الإخوان: «الإسلام دين ودولة، وعبادة وقيادة، صلاة وجهاد، مصحف وسيف».

ومن أناشيدهم:

هو الحق يحشد أجناده ويعتد للموقف الفاصل!

---

(69) انظر: كتابنا «التربية الإسلامية ومدرسة حسن البنا».

فصـــــفوا الكتائـــــب آســــاده ودكـــوا بـــه دولـــة الباطـــل!

ويصف هذا النشيد رجال الدعوة بقوله:

رقـــاق إذا مـــا الـــدجى زارنـــا غمرنـــا محاريبنـــا بـــالحزن

وجنـــد شـــداد إذا رامنـــا لبـــأس رأى أســـدا لا تهـــن

أخـــا الكفـــر إمـــا تبعـــت الهـــدى فأصـــبحت فينـــا الأخ المفتـــدى

وإمـــا اعتـــديت فـــنحن الكمـــاة نقاضـــي إلـــى الـــروع مـــن هـــددا

إذن لأذقنـــاك ضـــعف الحيـــاة وضـــعف الممـــات ولـــن تنجـــدا

فإنـــا نصـــول بـــروح الإلـــه ونقفـــو ركـــاب نبـــي الهـــدى

نوه الإمام الشهيد بالجهاد في كل المناسبات، وكتب في ذلك رسالة نقل فيها أقوال العلماء من جميع المذاهب على وجوب الجهاد، وبين منه ما هو فرض كفاية، وما هو فرض عين، ثم قال:

«فها أنت ذا ترى من ذلك كله كيف أجمع أهل العلم مجتهدين ومقلدين، سلفيين وخلفيين، على أن الجهاد فرض كفاية على الأمة الإسلامية، لنشر الدعوة، وفرض عين لدفع هجوم الكفار عليها، والمسلمون الآن كما تعلم مستذلون لغيرهم محكومون بالكفار، قد ديست أرضهم وانتهكت حرماتهم، وتحكم في شئونهم خصومهم، وتعطلت شعائر دينهم في ديارهم، فضلا عن عجزهم عن نشر دعوتهم، فوجب وجوبا عينيا لا مناص منه أن يتجهز كل مسلم وأن ينطوي على نية الجهاد وإعداد العدة له، حتى تحين الفرصة ويقضي الله أمرا كان مفعولا.

ولعل من تمام هذا البحث أن أذكر لك أن المسلمين في أي عصر من

عصورهم، قبل هذا العصر المظلم الذي ماتت فيه نخوتهم، لم يتركوا الجهاد، ولم يفرطوا فيه حتى علماؤهم والمتصوفة منهم والمحترفون وغيرهم، فكانوا جميعا على أهبة الاستعداد، كان عبد الله بن المبارك الفقيه الزاهد متطوعا في أكثر أوقاته بالجهاد، وكان عبد الواحد بن زيد الصوفي الزاهد كذلك، وكان شقيق البلخي شيخ الصوفية في وقته يحمل نفسه وتلامذته على الجهاد.

وكان البدر العيني شارح البخاري الفقيه المحدث يغزو سنة ويدرس العلم سنة، ويحج سنة، وكان القاضي أسد بن الفرات المالكي أميرا للبحر في وقته، وكان الإمام الشافعي يرمي عشرة ولا يخطئ.

كذلك كان السلف - رضوان الله عليهم - فأين نحن من هذا التاريخ؟!»[70]. اهـ.

مكانة الجهاد في الإسلام:

لم يكتف الإسلام من المسلم أن يعبد الله في نفسه بالصلاة والصيام والدعاء والتسبيح بالعشي والإبكار.

ولم يكفه منه أن يعبده تعالى ببذل جزء من ماله زكاة وطهرة ومواساة للضعفاء.

أجل، لم يكفه ذلك من المسلم، ما دام في الدنيا باطل يناوئ الحق، وشر يغالب الخير، وفساد يقف أهله في وجه الإصلاح والمصلحين.

لم يرض من المسلم أن يلزم بيته، ويغلق عليه بابه، ويترك أبالسة الشر، وطواغيت الباطل، يعيثون في الأرض فسادا، ويفعلون بالحقائق والقيم

(70) من رسالة «الجهاد» للإمام البنا.

الرفيعة ما تفعل النار بالهشيم، ويكتفي هو بالحوقلة والاسترجاع، والتسبيح والتهليل!

ولكنه فرض على المسلم عبادة يسهم بها في مقاومة الشر، كما أسهم بعبادة الزكاة في فعل الخير.

تلك هي عبادة «الجهاد في سبيل الله».

أمر المسلم بهذه الفريضة كما أمر بالصلاة والصيام والزكاة، سواء بسواء: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ} [المائدة: 35]، {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ۩ 77 وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ} [الحج: 77، 78].

وجعل هذا الجهاد من دلائل الإيمان بالحق، وأنكر على قوم زعموا الإيمان من غير استعداد للبذل والجهاد: {قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ} [الحجرات: 14]، ثم بين تعالى من هم المؤمنون حقا فقال: {إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ} [الحجرات: 15].

وفي كل مجتمع يوجد أفراد ينزعون إلى الزهد في الدنيا، والزهد في لقاء الناس، والرغبة في الانقطاع إلى العبادة.

ولكن نبي الإسلام يوجه الطاقات الروحية عند هؤلاء إلى ساحة الجهاد الرحبة، بدل الصومعة الضيقة.

وما أعظم الفرق بين صاحب الصومعة وصاحب الجهاد! ذاك يفر من الشر خائفا، وهذا يهاجمه واثقا، ذاك يعيش في حدود نفسه، وهذا يعيش لأبناء جنسه.

ولهذا اوصى الرسول صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه فقال: «**وعليك بالجهاد، فإنه رهبانية الإسلام**»(71).

وقال أبو هريرة: «مر رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم على شعب - وهو المنفرج بين جبلين - فيه عيينة - أي عين صغيرة - من ماء عذبة، فأعجبته لطيبها، فقال: لو اعتزلت الناس فأقمت في هذا الشعب، ولن أفعل حتى أستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «**لا تفعل، فإن مقام أحدكم في سبيل الله أفضل من صلاته في بيته سبعين عاما!! ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة؟! اغزوا في سبيل الله، من قاتل في سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة**»(72)، وفواق الناقة ما بين رفع اليد عن ضرعها وقت الحلب ووضعها، وقيل: ما بين الحلبتين.

سر فرضية الجهاد في الإسلام:

إن المسلم صاحب رسالة عالمية شاملة لا يصلح لحملها السلبيون والانعزاليون، وإنما يحملها الإيجابيون المجاهدون.

---

(71) رواه أحمد عن أبي سعيد الخدري، ورواته ثقات كما في «التيسير» للمناوي، وحسنه في «صحيح الجامع الصغير».

(72) رواه الترمذي وحسنه (1650)، والحاكم وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي (68/2)، وفيه: «**ستين عاما**» لا «**سبعين**»، وكذا رواه أحمد عن أبي أمامة بأطول منه.

رسالة غايتها أن يسود الحق والعدل، وتعلو كلمة الله في أرضه.

رسالة جاءت لتقاوم الضعف في النفوس، والزيغ في العقول، والانحراف في السلوك، والبغي في الجماعات، والطغيان في الحكومات، والتظالم بين الأمم والشعوب.

رسالة جاءت لتحطم الوساطة المصطنعة بين الله وعباده، وتحطم الفوارق المفتعلة بين الناس بعضهم وبعض.

رسالة تقول للضعفاء: شدوا سواعدكم، وتصيح في الأذلاء: ارفعوا رؤوسكم، وتصرخ في النائمين: هبوا من سباتكم، وتنادي المستعبدين: حطموا قيودكم، وتدعو المستكبرين: أن انزلوا من عروش كبريائكم.

تقول للأغنياء: أنفقوا من مال الله لا من أموالكم.

وتقول للحكام: **{إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ}** [النساء: 58].

وتقول للمتفاخرين بالأنساب: من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه.

وتقول للمتسلطين على الضمائر من أهل الكتاب: **{تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ}** [آل عمران: 64].

وتقول للناس جميعا: **{إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ}** [الحجرات: 13].

ومثل هذه الرسالة الشاملة لا بد أن يكون لها خصوم معاندون، وأعداء مكابرون، يدافعون عن مصالحهم، وينافحون عن نفوذهم ووجودهم، فلا

غرابة أن يردوا حقها بالقوة، ويصادروا دعوتها بالسيف، ويصدوا دعاتها بالجبروت والعسف.

ولا يمكن لمثل هذه الرسالة العامة الخالدة أن تغمض العين على القذى، وتسحب الذيل على الأذى، وترضى من الغنيمة بالإياب، وتدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله!! بله أن تدع قيصر يغتصب حق الله.

لقد آن الأوان أن يعلم الناس أن قيصر وما لقيصر لله الواحد القهار، إن حكم الله لا يخضع لقيصر، ولكن قيصر هو الذي يخضع لحكم الله.

وإذن فلا بد لهذه الرسالة ودعاتها من صدام مع الطغاة والمتجبرين، مع القياصرة وأشياء القياصرة، مع أدعياء الألوهية بالقول أو بالفعل.

فعلى المسلم أن يعد العدة، ويأخذ الأهبة، ويشهر سيف الحق ليقاوم الباطل، ويحمل معول التطهير ليهدم صروح التأله في الأرض، ويثل عروش الطغيان والاستكبار ويرسي دعائم الحرية للعقائد كلها: {**حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ**} [الأنفال: 39].

فمن فهم طبيعة الرسالة الإسلامية لم يصعب عليه تصور الجهاد فريضة من فرائضها، وعبادة من عباداتها.

ولقد كان الله تعالى ينتقم لرسله والمؤمنين - قبل الإسلام - من الطغاة المكذبين بنقم سماوية، وخوارق كونية، ينزلها بأعدائه فتدمر عليهم، وتجعلهم حصيدا خامدين، كما فعل بقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وفرعون وهامان وقارون وغيرهم، قال تعالى: {**فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ**

ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ} [العنكبوت: 40].

ولكن الله فضل هذه الأمة الخاتمة فلم يجعل الخوارق الكونية أساسا في ثبوت رسالتها، ولا في نصرة دعوتها(73)، ولو شاء الله لخسف بأعدائها الأرض، أو أسقط عليهم كسفا من السماء، وأراح رسوله والمؤمنين من عناء الجهاد.

بيد أن الله تعالى كرم هذه الأمة، وأسبغ عليها فضله، وأتم عليها نعمته، فكلفها عبء الجهاد بالأموال والأنفس في سبيل الله، ومدافعة الباطل بما معها من حق، معدة لأعدائها ما استطاعت من قوة، ومعتمدة بعد ذلك على الله تتت، ولهذا أنكر القرآن على فريق من الصحابة - رضوان الله عليهم - كراهيتهم للقاء المشركين في بدر، فقال تعالى: {**كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ 5 يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ 6 وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ 7 لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ**} [الأنفال: 5 - 8].

ثم إن حياة الإنسان قائمة على الابتلاء: {**إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ**} [الإنسان: 2]، {**لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ**} [البلد: 4]، وابتلاء الإنسان

---

(73) قلت: لم يجعلها أساسا، بمعنى أنها ليست هي الأصل والعمدة في ذلك، وهذا لا ينفي أن تكون هناك خوارق كثيرة لتأييد نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد معجزته الكبرى وآيته العظمى، وهي القرآن، بل هذا ما ثبت بالفعل ثبوتا مستفيضا قاطعا، كما لا ينفي أن يقع كثير من الخوارق نصرة للمؤمنين، منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم، مثل: نزول الملائكة في بدر والخندق وحنين، وغير ذلك، مما حفلت به الكتب والمصادر الموثقة.

المؤمن أشد من غيره، لأنه صاحب دعوة، وحامل رسالة، وكذلك الجماعة المؤمنة المبتلاة بالجماعات الكافرة: {**وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ**} [البقرة: 251].

ومما لا ريب فيه أن التكليف الذي ميز الله به هذا النوع من المخلوقات - آدم وذريته - قائم على الابتلاء، وعلى أساسه قام الثواب والعقاب، وقامت سوق الجنة والنار.

فقد شاء الله أن تقوم هذه الحياة وهذا الكون على الازدواج: الخير مشوب بالشر، واللذة ممزوجة بالألم، والنهار يعقبه ليل، وهكذا في الكون المادي نور وظلام، وفي العوالم الغيبية ملائكة وشياطين، وفي بني الإنسان أخيار وأشرار، وفي النفس الإنسانية خواطر يلهمها ملك، ونزغات يوسوس بها شيطان.

وقد ابتلى الله المؤمنين بالكافرين، كما ابتلى الكافرين بالمؤمنين، وأعطى كلا منهم عدده وأسلحته وأعوانه، وجعل بعضهم لبعض فتنة ليبلو أخبارهم، ويمتحن من يتولاه ويتولى رسله ممن يتولى الشيطان وحزبه، وفي ذلك يقول سبحانه: {**وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا**} [الفرقان: 20]، {**ذَٰلِكَۖ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖ**} [محمد: 4]، {**وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ**} [محمد: 31]، وهو تعالى عليم بذات الصدور، ولا تخفى عليه خافية في الأرض أو في السماء، ولكنه يعامل عباده معاملة المختبر، ليجزيهم بما عملوا لا بما علم أنهم سيعملونه، ويقيم عليهم الحجة، ويبطل الأعذار والتعلات: {**قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُ**} [الأنعام: 149].

شبهة مردودة:

ولقد زعم بعض المتحاملين على الإسلام أن الإسلام شهر السيف ليكره الناس على الدخول فيه، ونسي هؤلاء أن طبيعة الإسلام ترفض الإيمان إذا لم يأت عن طريق الاقتناع والاختيار الحر، وقد قال الله تعالى لرسوله في القرآن المكي: {أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ} [يونس: 99]، وقال تعالى في القرآن المدني: {لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ} [البقرة: 256].

وما كان الجهاد في الإسلام إلا لرد العدوان وإزاحة قوى الطغيان، ليختار الإنسان لنفسه، ويقرر مصيره بإرادته دون فتنة ولا اضطهاد.

لقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرسالة الخاتمة، وقام يدعو الناس إلى التحرر من العبودية لغير الله، من العبودية للأوثان، ومن العبودية للطبيعة، ومن العبودية لكل الأشياء، في الأرض أو في السماء، ومن العبودية للأشخاص أيا كانوا: مرئيين من الإنس، أو مستورين من الجن، أو الملائكة، ومن العبودية للأوهام والأهواء أيا كان نوعها.

دعا إلى ذلك المشركين الذين اتخذوا مع الله آلهة أخرى مما يرى وما لا يرى، حتى عبدوا الأحجار، واتخذوا أرباب من العجوة إذا جاعوا أكلوها: {وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ} [الحج: 73].

ودعا إلى ذلك أهل الكتاب الذين حرفوا كتبهم، وبدلوا دينهم، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباب من دون الله.

ولهذا كان - عليه الصلاة والسلام - يختم دعوته إلى رؤسائهم بهذه الآية

الكريمة: {يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ} [آل عمران: 64].

ولكن المشركين وأهل الكتاب وقفوا في وجه هذه الدعوة التحريرية المخلصة، رغم أن صاحبها لم يدعهم إليها إلا بالحكمة والموعظة الحسنة، ولم يجادلهم إلا بالتي هي أحسن، تاليا عليهم: {لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ} [الكافرون: 6]، {لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ} [يونس: 41].

ولكن القوم أبوا أن يعاملوه بالمثل، بل كان منطقهم يقول: لنا ديننا، وليس لك دينك، ولنا عملنا، وليس لك عملك، من حق الحجر أن يعبد، وليس من حق الله أن يوحد، لأهل الأوثان أن تكون لهم السلطة والسيادة، وليس لأهل التوحيد إلا المطاردة أو الإبادة.

ومن هنا كان الإيذاء والتعذيب، وكانت المقاطعة والتجويع، ثم كانت الهجرة والإ×خراج من الديار، ولا جريمة لصاحب الدعوة والمؤمنين معه إلا الإيمان بالله والدعوة إلى توحيده.

فلا عجب أن أذن الله للرسول والمؤمنين أن يدافعوا عن أنفسهم، ويذودوا عن دعوتهم وحرياتهم، بل حرية أهل الأديان جميعا: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ 39 ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} [الحج: 39، 40]، وتتالت أوامر القرآن تعد الأمة للجهاد وقتال قوى الشرك كما

تقاتل هي الإسلام: {**وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ**} [التوبة: 36].

كما أن الجهاد في الإسلام ليس لتحقيق هدف استعماري أو مغنم دنيوي، ولو شابه شيء من ذلك لم يعد جهادا في سبيل الله، وبطل أجر صاحبه، بل كان من أول من تسعر بهم النار.

فقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل للمغنم، أو حمية - أي: عصبية لقومه - أو ليرى مكانه، فكان جوابه القاطع: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»(74).

إن الجهاد هو ذروة سنام الإسلام، وهو جهاد في سبيل الله لا في سبيل الطاغوت، وهو جهاد لمقاومة طغيان الباطل لا لإكراه الناس على الحق، وهو شعبة من رسالة المسلم في الحياة، إلى جوار العبادة لله، وفعل الخير للناس: {**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ۩ 77 وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ ...**} [الحج: 77، 78].

فلا عجب أن جعله الأستاذ البنا جزءا أساسيا من أجزاء الإسلام: «فهو جهاد ودعوة، وجيش وفكرة»، كما أنه عقيدة وعبادة سواء بسواء.

* * *

(74) متفق عليه عن أبي موسى.

ملاحظتان حول فكرة الشمول الإسلامي

وأود هنا أن أبرز ملاحظتين هامتين:

الشمول والجزئيات:

الأولى: أن الشمول الإسلامي الذي يضم العقيدة والشريعة والأخلاق والآداب، والتشريع والمعاملات، والنظم والحضارة ... إلخ - لا يعني أن الإسلام جاء بتفصيلات كاملة لجزئياتها، وفصل كل شيء فيها تفصيلا.

فهذا غير صحيح، وهو ليس من الدين ولا الواقع في شيء.

إن عناية الإسلام إنما هي بالكليات والمقاصد، والقواعد الأساسية، والأحكام الضابطة للأمور التي من شأنها الثبات، ولو اختلفت الأزمان والبيئات والأحوال.

وفيما عدا ذلك يتخذ الإسلام أحد طريقين:

1 - إما أن يترك الأمر للناس، ويسكت عن الحكم فيه رحمة بهم، وتوسيعا عليهم، من غير نسيان ولا إهمال، وهذه هي المنطقة التي سميناها «منطقة العفو» أخذا من الحديث النبوي الذي رواه أبو الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم: «**ما أحل الله في كتابه فهو حلال، وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفو، فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن لينسى شيئا**»، ثم تلا: {**وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا**} [مريم: 64][75].

(75) والحديث رواه البزار، ورجاله ثقات كما قال الهيثمي (55/7)، والحاكم وصححه (375/2) ووافقه الذهبي.

وهنا تختلف اجتهادات الفقهاء لملء هذه المنطقة بما لديهم من أدوات الاجتهاد، إما عن طريق القياس على المنصوص عليه بشروطه، أو بطريق الاستصلاح، أو الاستحسان، أو الاستصحاب، أو غير ذلك من الأدلة التبعية، التي أخذ بها من أخذ، ورفضها من رفض، وتوسع فيها قوم، وضيق آخرون.

2 - وإما أن ينص عليها نصا إجماليا، على معنى أنه لا يتعرض للجزئيات والتفصيلات الكثيرة المتنوعة، والمختلفة باختلاف الزمان والمكان والعرف والحال، ولهذا عرف باستقراء أحكام الشريعة ونصوصها: أنها تفصل فيما شأنه الثبات وتجمل فيما شأنه التغير.

ولهذا نجد موضوعا مثل شئون الأسرة من زواج وطلاق ومواريث، ونحوها، فيه كثير من التفصيل في أحكامه في القرآن والسنة، لأن شأن الأسرة هو الثبات، وعدم الخضوع للتقلبات والتغيرات.

على حين نجد موضوعا مثل نظام الحكم، وما يتعلق بتكوين الحكومة وشكلها، وكيفية الشورى ... إلخ ... جاء في الإسلام مجملا غير مفصل، لأن مثل هذا الموضوع قابل للتطور والتغير بتغير الزمان والمكان، وأحوال الإنسان، فالإلزام بصور أو أحكام مفصلة فيه يعوق انطلاق المجتمع، ويجمد حركته، ويقيد حريته.

* * *

الشمول لا يعني إهمال مراتب الأعمال

والملاحظة الثانية: أن شمول الإسلام للعقائد والعبادات والأخلاق والآداب والمعاملات والنظم الاجتماعية المختلفة لا يعني أن هذه الأمور كلها في مرتبة واحدة، بل هي متفاوتة بيقين في منزلتها من الدين، كما أن في داخل كل منها ما يعد من الأصول، وما يعد من الفروع، ما هو من الأركان، وما هو من المكملات، ما هو من الفرائض وما هو من النوافل، ما هو قطعي وما هو ظني، وما هو متفق عليه وما هو مختلف فيه، ما هو في مرتبة الضروريات، وما هو في مرتبة الحاجيات، وما هو في مرتبة التحسينات، على حد تقسيم الأصوليين.

وهذا أمر جد مهم، حتى يأخذ كل عمل مرتبته، وتأخذ كل مرتبة حكمها، ولا نذيب الفواصل بين الأعمال بعضها وبعض، كما يفعل بعض الناس، الذين يعاملون الفروع معاملة الأصول، والسنن معاملة الفرائض، والمكروهات كالمحرمات، والأمور المختلف فيها كالأمور المتفق عليها، والظنيات كالقطعيات، ولهذا تضطرب أحكامهم، ويختلط عليهم الأمر ويبعدون عن سواء السبيل.

وهذا أمر نبهت على ضرورة الالتفات إليه في أكثر من كتاب لي، وخصوصا في كتابي «الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف»، وقد سميته فيه «فقه مراتب الأعمال»، الذي فرط فيه المسلمون في الأعصار الأخيرة، وأغفلوا فيه حفظ «النسب الشرعية» بين الأعمال بعضها وبعض.

كما أكدت ذلك في كتابي «أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة

القادمة»، وأدخلت ذلك فيما سميته «فقه الأولويات»، وهو يكمل فقها آخر، هو: «فقه الموازنات»، والحركة الإسلامية المعاصرة أحوج ما تكون إليهما جميعا.

قلت في ذلك الكتاب: «من فقه الأولويات: مراعاة النسب بين الأعمال والتكاليف الشرعية.

إن الإخلال بالنسب التي وضعها الإسلام للتكاليف الشرعية يحدث ضررا بليغا بالدين والحياة.

إن العقيدة في الإسلام مقدمة على العمل؛ لأنها الأساس، والأعمال هي البناء، ولا بناء بغير أساس.

وبعد العقيدة تأتي الأعمال، وهي متفاوتة تفاوتا بعيدا، وقد جاء في الحديث الصحيح: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها: لا إله إلا الله، وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق**»[76].

والقرآن يبين لنا أن الأعمال تتفاضل عند الله، وليست في درجة واحدة، يقول تعالى: {**أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ 19 ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ**} [التوبة: 19، 20].

ولهذا ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن جنس أعمال الجهاد أفضل من جنس أعمال الحج.

---

(76) رواه مسلم وأصحاب السنن عن أبي هريرة كما في «الجامع الصغير».

بل ذكر فقهاء الحنابلة وغيرهم أن الجهاد أفضل ما يتطوع به من أعمال البدن.

وفي فضل الجهاد جاءت أحاديث كثيرة منها ما رواه أبو ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أي الأعمال أفضل؟ قال: «**الإيمان بالله والجهاد في سبيل الله**»(77).

وقال صلى الله عليه وسلم لمن أراد الاعتزال للعبادة: «**لا تفعل، فإن مقام أحدكم في سبيل الله تعالى أفضل من صلاته في بيته سبعين عاما**»(78).

وفي فضل الرباط جاء حديث سلمان مرفوعا: «**رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات فيه جرى عليه عمله الذي كان يعمل، وأجري عليه رزقه، وأمن من الفتان**». رواه مسلم.

وهذا ما جعل إماما مثل: عبد الله بن المبارك وهو في أرض الرباط يكتب إلى صديقه الفضيل بن عياض الزاهد العابد، وهو ينتقل بين الحرمين مكة والمدينة متعبدا:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا لعلمت أنك بالعبادة تلعب!

من كان يخضب خده بدموعه فنحورنا بدمائنا تتخضب!

... إلى آخر الأبيات(79).

---

(77) متفق عليه عن أبي ذر.

(78) رواه الترمذين وقال: حديث حسن، والحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم، وقد مضى بتمامه (ص99، 100).

(79) ذكر القصة الحافظ ابن كثير في تفسير آخر آية من سورة آل عمران، كما ذكرها غيره من المؤرخين.

ومن المقرر فقها: أن النافلة لا يجوز تقديمها على الفريضة، وأن فرض العين مقم على فرض الكفاية، وأن فرض الكفاية - الذي لم يقم به أحد أو عدد يكفي - مقدم على فرض الكفاية الذي قام به من يكفي ويسد الثغرة، وأن فرض العين المتعلق بالجماعة والأمة مقدم على فرض العين المتعلق بحقوق الأفراد، وأن الواجب المحدد الوقت والذي جاء وقته بالفعل مقدم على الواجب الموسع في وقته.

ومن المقرر كذلك أن المصالح المقررة شرعا متفاوتة فيما بينها، فالمصالح الضرورية مقدمة على الحاجية والتحسينية، والمصالح الحاجية مقدمة على التحسينية، والمصالح المتعلقة بمصالح الأمة وحاجاتها أولى بالرعاية من المصالح المتعلقة بالأفراد عند التعارض، وهنا نجد فقه الموازنات يلتق فقه الأولويات.

إن آفة كثير من فصائل الصحوة الإسلامية هي غياب فقه الأولويات عنها، فكثيرا من تهتم بالفروع قبل الأصول، وبالجزئيات قبل الكليات، وبالمختلف فيه قبل المتفق عليه، وتسأل عن دم البعوض، ودم الحسين مهراق، ونثير معركة من أجل نافلة، وقد ضيع الناس الفرائض، أو من أجل شكل أو هيئة، دون اعتبار للمضمون.

وهذا هو الحال عند عموم المسلمين، أرى الملايين يعتمرون تطوعا كل عام في رمضان وغيره، ومنهم من يحج للمرة العاشرة أو العشرين، ولو جمع ما ينفقه هؤلاء في هذه النوافل لبلغ آلاف الملايين، ونحن نلهث من عدة سنوات لتجميع ألف مليون دولار للهيئة الخيرية الإسلامية، فلم نحصل على عشر المبلغ، ولا نصف عشره، ولا ثلثه! ولو قلت لهؤلاء المتطوعين

بالعمرة أو الحج: ادفعوا ما تنفقونه في رحلتكم التطوعية لمقاومة التنصير أو الشيوعية في آسيا وإفريقيا، أو المجاعات هنا وهناك، ما استجابوا لك، وهذه آفة قديمة شكا منها أطباء القلوب(80).

وإن من فقه الأولويات: أن نعرف أي القضايا أولى بالاهتمام فتعطى من الجهد والوقت أكثر مما يعطى غيرها.

وقد أنكر الإمام الغزالي في «الإحياء» على بعض فرق العباد والمتصوفة غرورهم ببعض أنواع العبادة، دون مراعاة لمراتب الأعمال والطاعات، ومنزلة بعضها من بعض، من حيث إن فيها النافلة والفريضة، وفرض الكفاية وفرض العين، والفرض المحدد وقته، والفرض الموسع فيه، والفرض المتعلق بالفرد، والفرض المتعلق بالأمة.

ومن الكلمات المعبرة هنا للغزالي رضي الله عنه: «ترك الترتيب بين الخيرات من جملة الشرور»(81).

إن شمول الإسلام لكل جوانب الحياة لا يعني تضييع النسب بينها، والإخلال بمراتبها الشرعية، كما جاء بها الإسلام، وهذا هو الفقه حقا: «ومن يرد الله به خيرا يفقهه في الدين».

* * *

(80) انظر: قصة بشر الحافي مع أحدهم في «الإحياء» (409/3).
(81) انظر: «إحياء علوم الدين» (1/3)، وكتابنا: «الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه» (ص87 - 90) ط. دار الوفاء - المنصورة - مصر.

ملحق: إسلام الإخوان المسلمين

يقول الإمام الشهيد حسن البنا في «رسالة المؤتمر الخامس»:

«اسمحوا لي أيها السادة أن أستخدم هذا التعبير، ولست أعني به أن للإخوان المسلمين إسلاما جديدا غير الإسلام الذي جاء به سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عن ربه، وإنما أعني أن كثيرا من المسلمين في كثير من العصور خلعوا على الإسلام نعوتا وأوصافا وحدودا ورسوما من عند أنفسهم، واستخدموا مرونته وسعته استخداما ضارا - مع أنها لم تكن إلا للحكمة السامية - فاختلفوا في معنى الإسلام اختلافا عظيما، وانطبعت للإسلام في نفوس أبنائه صور عدة تقرب أو تبعد أو تنطبق على الإسلام الأول الذي مثله رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه خير تمثيل.

فمن الناس من لا يرى الإسلام شيئا غير حدود العبادة الظاهرة، فإن أداها أو رأى من يؤديها اطمأن إلى ذلك ورضي به وحسبه قد وصل إلى لب الإسلام، وذلك هو المعنى الشائع عند عامة المسلمين.

ومن الناس من لا يرى الإسلام إلا الخلق الفاضل والروحانية الفياضة، والغذاء الفلسفي الشهي للعقل والروح، والبعد بهما عن أدران المادة الطاغية الظالمة.

ومنهم من يقف إسلامه عند حد الإعجاب بهذه المعاني الحيوية العملية في الإسلام، فلا يتطلب النظر إلى غيرها ولا يعجبه التفكير في سواها.

ومنهم من يرى الإسلام نوعا من العقائد الموروثة والأعمال التقليدية التي

لا غناء فيها ولا تقدم معها، فهو متبرم بالإسلام وبكل ما يتصل بالإسلام، وتجد هذا المعنى واضحا في نفوس كثير من الذين ثقفوا ثقافة أجنبية، ولم تتح لهم فرص حسن الاتصال بالحقائق الإسلامية، فهم لم يعرفوا عن الإسلام شيئا أصلا، أو عرفوه صورة مشوهة بمخالطة من لم يحسنوا تمثيله من المسلمين.

وتحت هذه الأقسام جميعا تندرج أقسام أخرى يختلف نظر كل منها إلى الإسلام عن نظر الآخر قليلا أو كثيرا، وقليل من الناس أدرك الإسلام صورة كاملة واضحة تنتظم هذه المعاني جميعا.

هذه الصور المتعددة للإسلام الواحد في نفوس الناس جعلتهم يختلفون اختلافا بينا في فهم الإخوان المسلمين وتصور فكرتهم.

فمن الناس من يتصور الإخوان المسلمين جماعة وعظية إرشادية كل همها أن تقدم للناس العظات، فتزهدهم في الدنيا وتذكرهم الآخرة.

ومنهم من يتصور الإخوان المسلمين طريقة صوفية تعنى بتعليم الناس ضروب الذكر وفنون العبادة وما يتبع ذلك من تجرد وزهادة.

ومنهم من يظنهم جماعة نظرية فقهية كل همها أن تقف عند طائفة من الأحكام تجادل فيها وتناضل عنها، وتحمل الناس عليها، وتخاصم أو تسالم من لم يسلم بها معها.

وقليل من الناس خالطوا الإخوان المسلمين وامتزجوا بهم، ولم يقفوا عند حدود السماع، ولم يخلعوا على الإخوان المسلمين إسلاما يتصورونه هم، فعرفوا حقيقتهم وأدركوا كل شيء عن دعوتهم علما وعملا.

ولهذا أحببت أن أتحدث لحضراتكم في إيجاز عن معنى الإسلام وصورته الماثلة في نفوس الإخوان المسلمين، حتى يكون الأساس الذي ندعو إليه ونعتز بالانتساب له والاستمداد منه واضحا جليا:

1 - نحن نعتقد أن أحكام الإسلام وتعاليمه شاملة تنتظم شئون الناس في الدنيا وفي الآخرة، وأن الذين يظنون أن هذه التعاليم إنما تتناول الناحية العبادية أو الروحية دون غيرها من النواحي مخطئون في هذا الظن، فالإسلام عقيدة وعبادة، ووطن وجنسية، ودين ودولة، وروحانية وعمل، ومصحف وسيف، والقرآن الكريم ينطق ذلك كله ويعتبره من لب الإسلام ومن صميمه، ويوصي بالإحسان فيه جميعه، وإلى هذا تشير الآية الكريم: {**وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ**} [القصص: 77].

وإنك تقرأ في القرآن وفي الصلاة إن شئت قول الله تتت في العقيدة والعبادة: {**وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ**} [البينة: 5].

وتقرأ قوله تعالى في الحكم والقضاء والسياسة: {**فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا**} [النساء: 65].

وتقرأ قوله تعالى في الدين وفي التجارة: {**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ**

فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٌ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞ} [البقرة: 282].

وتقرأ قوله تعالى في الجهاد والقتال والغزو: {وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلۡتَقُمۡ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُم مَّعَكَ وَلۡيَأۡخُذُوٓاْ أَسۡلِحَتَهُمۡۖ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلۡيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمۡ وَلۡتَأۡتِ طَآئِفَةٌ أُخۡرَىٰ لَمۡ يُصَلُّواْ فَلۡيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلۡيَأۡخُذُواْ حِذۡرَهُمۡ وَأَسۡلِحَتَهُمۡۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ وَأَمۡتِعَتِكُمۡ فَيَمِيلُونَ عَلَيۡكُم مَّيۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن كَانَ بِكُمۡ أَذٗى مِّن مَّطَرٍ أَوۡ كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسۡلِحَتَكُمۡۖ وَخُذُواْ حِذۡرَكُمۡ} [النساء: 102] ... إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة البارعة في هذه الأغراض نفسها، وفي غيرها من الآداب العامة وشئون الاجتماع.

وهكذا اتصل الإخوان بكتاب الله واستلهموه واسترشدوا فأيقنوا أن الإسلام هو هذا المعنى الكلي الشامل، وأنه يجب أن يهيمن على كل شئون الحياة، وأن تصطبغ جميعها به وأن تنزل على حكمه وأن تساير قواعده وتعاليمه وتستمد منها ما دامت الأمة تريد أن تكون مسلمة إسلاما صحيحا، أما إذا أسلمت في عبادتها وقلدت غير المسلمين في بقية شئونها، فهي أمة ناقصة الإسلام تضاهئ الذين قال الله تعالى فيهم: {أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ

ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ } [البقرة: 85].

2 - إلى جانب هذا يعتقد الإخوان أن أساس التعاليم الإسلامية ومعينها هو كتاب الله تتت وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، اللذان إن تمسكت بهما الأمة فلن تضل أبدا، وأن كثيرا من الآراء والعلوم التي اتصلت بالإسلام وتلونت بلونه تحمل لون العصور التي أوجدته والشعوب التي عاصرتها، ولهذا يجب أن تستقي النظم الإسلامية التي تحمل عليها الأمة من هذا المعين الصافي، معين السهولة الأولى، وأن نفهم الإسلام كما كان يفهمه الصحابة والتابعون من السلف الصالح - رضوان الله عليهم - وأن نقف عند هذه الحدود الربانية النبوية حتى لا نقيد أنفسنا بغير ما يقيدنا الله به، ولا نلزم عصرنا لون عصر لا يتفق معه، والإسلام دين البشرية جميعا.

3 - وإلى جانب هذا أيضا يعتقد الإخوان المسلمون أن الإسلام كدين عام انتظم كل شئون الحياة في كل الشعوب والأمم لكل الأعصار والأزمان، جاء أكمل وأسمى من أن يعرض لجزئيات هذه الحياة وخصوصا في الأمور الدنيوية البحتة، فهو إنما يضع القواعد الكلية في كل شأن من هذه الشئون، ويرشد الناس إلى الطريق العملية للتطبيق عليها والسير في حدودها.

ولضمان الحق والصواب في هذا التطبيق أو تحريهما على الأقل عني الإسلام عناية تامة بعلاج النفس الإنسانية، وهي مصدر النظم ومادة التفكير والتصوير، والتشكل، فوصف لها من الأدوية الناجعة ما يطهرها من الهوى ويغسلها من أدران الغرض والغاية ويهديها إلى الكمال والفضيلة، ويزجرها عن الجور والقصور والعدوان، وإذا استقامت النفس وصفت فقد أصبح كل

ما يصدر عنها صالحا جميلا، يقولون إن العدل ليس في نص القانون ولكنه في نفس القاضي، وقد تأتي بالقانون الكامل العادل إلى القاضي ذي الهوى والغاية فيطبقه تطبيقا جائرا لا عدل معه، وقد تأتي بالقانون الناقص والجائر إلى القاضي الفاضل العادل البعيد عن الأهواء والغايات فيطبقه تطبيقا فاضلا عادلا فيه كل الخير والبر والرحمة والإنصاف، ومن هنا كانت النفس الإنسانية محل عناية كبرى في كتاب الله، وكانت النفوس الأولى التي صاغها هذا الإسلام مثال الكمال الإنساني، ولهذا كله كانت طبيعة الإسلام تساير العصور والأمم، وتتسع لكل الأغراض والمطالب، ولهذا أيضا كان الإسلام لا يأبى أبدا الاستفادة من كل نظام صالح لا يتعارض مع قواعده الكلية وأصوله العامة.

لا أحب أيها السادة أن أسترسل في هذا البيان، فذلك باب واسع، وحسبنا هذه الإلمامة الموجزة تلقي ضوءا على هذا المعنى العام للفكرة الإسلامية في نفوس الإخون المسلمين.

* * *

فكرة الإخوان المسلمين تضم كل المعاني الإصلاحية

كان من نتيجة هذا الفهم العام الشامل للإسلام عند الإخوان المسلمين أن شملت فكرتهم كل نواحي الإصلاح في الأمة، وتمثلت فيها كل عناصر غيرها من الفكر الإصلاحية، وأصبح كل مصلح مخلص غيور يجد فيها أمنيته، والتقت عندها آمال محبي الإصلاح الذين عرفوها وفهموا مراميها، وتستطيع أن تقول ولا حرج عليك: إن الإخوان المسلمين:

1 - دعوة سلفية: لأنهم يدعون إلى العودة بالإسلام إلى معينه الصافي من كتاب الله وسنة رسوله.

2 - وطريقة سنية: لأنهم يحملون أنفسهم على العمل بالسنة المطهرة في كل شيء، وبخاصة في العقائد والعبادات ما وجدوا إلى ذلك سبيلا.

3 - وحقيقة صوفية: لأنهم يعلمون أن أساس الخير طهارة النفس، ونقاء القلب، والمواظبة على العمل، والإعراض عن الخلق، والحب في الله، والارتباط على الخير.

4 - وهيئة سياسية: لأنهم يطالبون بإصلاح الحكم في الداخل وتعديل النظر في صلة الأمة الإسلامية بغيرها من الأمم في الخارج، وتربية الشعب على العزة والكرامة والحرص على قوميته إلى أبعد حد.

5 - وجماعة رياضية: لأنهم يعنون بجسومهم، ويعلمون أن المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف، وأن النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «**إن**

لبدنك عليك حقا»[82]، وأن تكاليف الإسلام كلها لا يمكن أن تؤدى كاملة صحيحة إلا بالجسم القوي، فالصلاة والصوم والحج والزكاة لا بد لها من جسم يحتمل أعباء الكسب والعمل والكفاح في طلب الرزق، ولأنهم تبعا لذلك يعنون بتشكيلاتهم وفرقهم الرياضية عناية تضارع - وربما فاقت - كثيرا من الأندية المتخصصة بالرياضة البدنية وحدها.

6 - ورابطة علمية ثقافية: لأن الإسلام يجعل طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، ولأن أندية الإخوان هي في الواقع مدارس للتعليم والتثقيف ومعاهد لتربية الجسم والعقل والروح.

7 - وشركة اقتصادية: لأن الإسلام يعنى بتدبير المال وكسبه من وجهه، وهو الذي يقول نبيه صلى الله عليه وسلم: «**نعم المال الصالح للرجل الصالح**»[83]، ويقول: «**من أمسى كالا من عمل يده أمسى مغفورا له**»[84]، «**إن الله يحب المؤمن المحترف**»[85].

8 - وفكرة اجتماعية: لأنهم يعنون بأدواء المجتمع الإسلامي، ويحاولون الوصول إلى طرق علاجها، وشفاء الأمة منها.

وهكذا نرى أن شمول معنى الإسلام قد أكسب فكرتنا شمولا لكل مناحي الإصلاح، ووجه نشاط الإخون إلى كل هذه النواحي، وهم في الوقت الذي

---

(82) متفق عليه عن عبد الله بن عمرو.

(83) رواه أحمد والحاكم وصححه عن عمرو بن العاص.

(84) رواه الطبراني في «الأوسط» عن ابن عباس، وإسناده ضعيف، كما في «التيسير» للمناوي.

(85) رواه الحكيم الترمذي والطبراني والبيهقي في «الشعب» عن ابن عمر، وهو ضعيف كما في «التيسير».

يتجه فيه غيرهم إلى ناحية واحدة دون غيرها، يتجهون إليها جميعا، ويعلمون أن الإسلام يطالبهم بها جميعا.

ومن هنا كان كثير من مظاهر أعمال الإخوان يبدو أمام الناس متناقضا وما هو بمتناقض.

فقد يرى الناس الأخ المسلم في المحراب خاشعا متبتلا يبكي ويتذلل، وبعد قليل يكون هو بعينه واعظا مدرسا يقرع الآذان بزواجر الوعظ، وبعد قليل تراه نفسه رياضيا أنيقا يرمي بالكرة أو يدرب على العدو أو يمارس السباحة، وبعد فترة يكون هو بعينه في متجره أو معمله يزاول صناعته في أمانة وفي إخلاص، هذه مظاهر قد يراها الناس متنافرة لا يلتئم بعضها ببعض، ولو علموا أنها جميعا يجمعها الإسلام ويأمر بها الإسلام ويحض عليها الإسلام لتحققوا فيها مظاهر الالتئام ومعاني الانسجام، ومع هذا الشمول فقد اجتنب الإخوان كل ما يؤخذ على هذه النواحي من المآخذ ومواطن النقد والتقصير.

كما اجتنبوا التعصب للألقاب إذ جمعهم الإسلام الجامع حول لقب واحد، هو: «الإخوان المسلمون». انتهى من رسالة «المؤتمر الخامس» للإمام حسن البنا.

* * *